علاقة المعجزة بالمبدأ السببي وأثر ذلك في الدلالة على النبوة دراسة تحليلية نقدية

أ.د. خالد بن مُحَمَّد القرني[1]

الملخص

موضوع هذا البحث: علاقة المعجزة بالمبدأ السببي وأثر الفهم لتلك العلاقة على النبوة.

ويهدف البحث إلى: بيان طبيعة تلك العلاقة لدى السلف وفي النتاج الكلامي والفلسفي، وشرح طبيعة العلاقة بين الأسباب والمسببات لدى الفلاسفة والمتكلمين، وبيان إنكار بعضهم لخوارق العادات، وقولهم بأنَّ معجزات الرسل ليست إلا أموراً طبيعية تجري مع ناموس الطبيعة، وأنها عندهم ترتبط بالأسباب كما يرتبط غيرها من الأحداث، كما يهدف إلى نقد ذلك كله وفق رؤية أهل السنة والجماعة، وشرح الفارق بين فهم السلف للمعجزة وفهم هؤلاء الفلاسفة والمتكلمين، ويبين موقف المفكرين المعاصرين من النبوة، ومدى تغلغل الفكر المادي في بنية هذا التفكير. وقد استعنت في ذلك كله **بالمنهجين التحليلي والنقدي.**

وكان من أهم النتائج التي توصلت إليها: الترابط الوثيق بين السببية والمعجزة؛ وذلك أنَّ الإقرار بالمعجزة يستبطن ضرورةً الإقرار بالمبدأ السببي، وإنَّ عموم المدارس الإسلامية – بما في ذلك المعتزلة والأشاعرة والمتصوفة – قائلة بنفاذ مشيئة الله تعالى في خلقه، فمن

(١) البرفسور بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة الملك خالد- السعودية
- رسالة الماجستير: روجيه جارودي فلسفته وموقفه من أصول الإيمان عرض ونقد.
- رسالة الدكتوراه: الاستقراء في الفكر الفلسفي دراسة تحليلية نقدية.
البريد الالكتروني: allgarny1@gmail.com

قال منهم بالتلازم الضروري بين السبب والمسبب قال بأن ذلك محكوم بإرادة الله ومشيئته، ومن نفى الضرورة قال بأن لكل حادث محدث؛ إلا أنه أرجع ذلك كله إلى إرادة الله الغالبة وأمره النافذ، فهو الفاعل على الحقيقة. وكان من أهم **التوصيات:** ضرورة الاعتناء بالمسائل البينية، واستدعاء العلوم التجريبية عند مناقشة بعض مباحث علم الاعتقاد التي لها تعلق بالكون والإنسان، وأهمية أنْ يدرس طلابُ الدراسات العليا مداخلَ مركزة في العلوم التجريبية المعاصرة، كالفيزياء والكيمياء وعلم النفس وعلم الاجتماع.

الكلمات المفتاحية: السببية، النبوات، المعجزة، المتكلمون، الخلاف العقدي.

Abstract

The subject of this research is the relationship of miracles to the principle of causality and the impact of understanding that relationship on prophecy.

The research aims to clarify the nature of this relationship among the predecessors and in the theological and philosophical conclusions and explain the nature of the relationship between causes and effects according to philosophers and theologians. It also aims to demonstrate some of their denial of supernatural habits and their saying that the miracles of the messengers are only acquiescent things that occur in accordance with the law of nature and that miracles according to them are linked to causes just as other events are linked. In addition, it also aims to criticize all of this according to the opinions of the Sunnites and explain the difference between the predecessors' understanding of the miracle and the understanding of these philosophers and theologians. This research explains the attitude of contemporary thinkers on prophecy and the extent of the domination of materialistic thought in the principles of this thinking. In all of this, I used **analytical and critical approaches**.

One of **the most important findings** was the close interrelationship between causality and miracle. This is because acknowledging the miracle necessarily requires acknowledging the causality principle. The majority of Islamic Madrasas - including the Mu'tazilites, Ash'aris, and Sufis - believe in the permeation of the will of God Almighty in his creation. Whoever among them believes in the necessary interrelationship between cause and effect says that this is governed by God's willing, and whoever denies necessity says that every event has a cause; however, he attributed all of this to God's prevailing will and effective command, which he is the perpetrator of the truth. Among the most important **recommendations** were: the necessity of paying attention to inter-related issues, and using experimental sciences when discussing some research studies in the Scholastic theology that are related to the universe and humans. Moreover, the importance of graduate students studying focused approaches to contemporary experimental sciences, such as physics, chemistry, psychology, and sociology.

Keywords: causality, prophecies, miracle, Theologians, doctrinal dispute.

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن المتأمل في التراث الفلسفي والكلامي لدى الفرق الكلامية والمدارس الفلسفية يجد البحث في النبوة من أهم القضايا التي شغلت حيزاً كبيراً من هذا النتاج، كما أن البحث في حقيقة المعجزة نال قدراً كبيراً من اهتمام المتكلمين والفلاسفة الذين عاشوا في المجتمع الإسلامي؛ وذلك أن إثبات النبوة لا يمكن أن يعود إلى مجرد الدعوى، بل لابد من دليل يثبت هذا المدلول. وقد ناقش الإسلاميون هذا الأمر انطلاقاً من حقيقة المعجزة، وطبيعة دلالتها على دعوى النبوة، وأسهمت مختلف المدارس الكلامية في تناول هذا الجانب بالدراسة. وعند التأمل في هذه المسألة ظهر لي الارتباط الوثيق بين هذا الأمر والمبدأ السببي كأساس فلسفي تحتكم إليه مختلف المدارس الفلسفية والكلامية[1]؛ ومن هنا رأيت أهمية التناول لعلاقة المعجزة بالسببية من جهة، وقدرة الباري عز وجل في التصرف في هذا الكون من جهة أخرى. ولهذا كانت **مشكلة البحث تتمثل في السؤال المركزي: ما حقيقة الخلاف بين أهل السنة والجماعة والمتكلمين والفلاسفة في مسألة علاقة المعجزة بالمبدأ السببي؟**؛ وقد تفرع عن هذا السؤال عدد من الأسئلة هي:

(١) وسيأتي شرح هذا بوضوح في المباحث القادمة، وانظر في ذلك على سبيل المثال: رسالة الإبانة عن العلة الفاعلة القريبة للكون والفساد، الكندي، ص٢١٤، رسالة في أن العناصر والجرم الأقصى كرية الشكل، الكندي، ص٩١، النجاة، لابن سينا، ص٢٤٩، تهافت الفلاسفة، للغزالي، ص٢٧٧-٢٧٩، تهافت التهافت، لابن رشد، ص٢٠٤، مقالة "الأسباب بين الغزالي وابن رشد"، للعقاد، مجلة الكتاب، ص١٩٨ - ٢٠٣، المنهج النقدي في فلسفة ابن رشد، لعاطف العراقي، ص١٧١.

- ما حقيقة المعجزة وعلاقتها بالمبدأ السببي لدى أهل السنة والجماعة؟
- ما الموقف من المعجزة وعلاقتها بالمبدأ السببي لدى فلاسفة الإسلام؟
- ما الموقف من المعجزة وعلاقتها بالمبدأ السببي لدى متكلمي الإسلام؟
- ما الموقف من المعجزة وعلاقتها بالمبدأ السببي لدى المفكرين العرب في العصر الحديث؟
- ما الفرق بين المعجزة والسحر من جهة تعلقها بالمبدأ السببي؟

أهمية البحث: تكمن أهمية هذا البحث في بيان العلاقة المنهجية بين التصورات العقلية وطبيعة النظر إلى ضرورات العقل من جهة، وتفسير معجزات الأنبياء وطبيعة المعجزة لدى الفلاسفة والمتكلمين من جهة أخرى؛ ليظهر للباحث مدى التماسك المنهجي من عدمه لدى هذه المدارس، وما يترتب على مثل هذه المناهج من لوازم.

أهداف البحث

١. بيان حقيقة العلاقة بين المعجزة والمبدأ السببي.
٢. عرض الموقف من المعجزة وعلاقتها بالمبدأ السببي لدى فلاسفة الإسلام.
٣. عرض الموقف من المعجزة وعلاقتها بالمبدأ السببي لدى متكلمي الإسلام.
٤. عرض الموقف من المعجزة وعلاقتها بالمبدأ السببي لدى المفكرين العرب في العصر الحديث.
٥. بيان الفرق بين المعجزة والسحر من جهة تعلقها بالمبدأ السببي.

حدود البحث: تتمثل حدوده في دراسة حقيقية العلاقة بين المبدأ السببي والمعجزة لدى أهل السنة والجماعة، ومتكلمي الإسلام، وفلاسفة الإسلام، والمفكرين العرب المعاصرين.

منهج البحث وإجراءاته: اتبعت في هذا البحث المنهج الوصفي من جهة، والمنهج التحليلي النقدي من جهة أخرى؛ بغية إعطاء صورة دقيقة للأقوال التي تم تناولها، ثم تحليلها ونقدها وفق منهج أهل السنة والجماعة. **وقد عملت فيه على النحو التالي:**

- جعل الآيات بالرسم العثماني وبجانبها اسم السورة ورقم الآية.
- تخريج الأحاديث من مظانها.
- الرجوع لكتب القوم فيما أنقل عنهم ما استطعت، وتوثيق ذلك كما هو مبين في شروط المجلة.

الدراسات السابقة: لا شك أن الكتابات في مسألة السببية لدى الفرق الإسلامية، أو لدى الفلاسفة كثيرة، وما يقصد إليه هذا البحث يكمن في: تجلية العلاقة بين المبدأ السببي والمعجزة وحقيقية الخلاف في هذه المسألة؛ وهذا الهدف لم أقف على دراسة تبينه وتحققه.

تبويب البحث: وكان البحث في هذه المسألة وفق التبويب التالي: مقدمة وخمسة مباحث وخاتمة.

المقدمة: عرّفت فيها بالبحث، وأهدافه، وأهميته، والمنهج الذي اتبعته فيه.

المبحث الأول: حقيقة المعجزة وعلاقتها بالمبدأ السببي لدى أهل السنة والجماعة.

المبحث الثاني: الموقف من المعجزة وعلاقتها بالمبدأ السببي لدى فلاسفة الإسلام.

المبحث الثالث: الموقف من المعجزة وعلاقتها بالمبدأ السببي لدى متكلمي الإسلام.

المبحث الرابع: الموقف من المعجزة وعلاقتها بالمبدأ السببي لدى المفكرين العرب في العصر الحديث.

المبحث الخامس: الفرق بين المعجزة والسحر من جهة تعلقها بالمبدأ السببي.

ثم ذيلت البحث بالخاتمة وفيها أهم النتائج.

قائمة المصادر والمراجع.

وأسأل الله تعالى أن يجعله خالصاً صواباً، وأن يغفر لي ما فيه من زلل، وأن ييسر استدراك الخلل، إنه الكريم المنان.

المبحث الأول

حقيقة المعجزة وعلاقتها بالمبدأ السببي لدى أهل السنة والجماعة

لما كان العقل البشري قاصراً عن إدراك الكثير من الحقائق مهما أوتي من قدرة على الاستيعاب؛ فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يبعث رسلاً مبشرين ومنذرين؛ لهداية الخلق، وإصلاح دنياهم وأخراهم، وإقامة الحجة عليهم قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]. وإتمامًا لإقامة الحجة بالرسل على الخلق، ورفعاً للعذر؛ أيد الله رسله بالآيات والبراهين الدالة على صدقهم وأنهم رسل الله حقاً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر:٣٤]، و﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [البقرة: ٨٧]، و: ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [النساء: ١٥٣]، و: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى﴾ [العنكبوت:٣٩]، و: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١١٠]، و: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ﴾ [الزخرف:٦٣]، و: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف:٦]، و: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤]، و: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣]، و: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، و: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [المائدة:٣٢]، و: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٠١]، و: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ

وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [التوبة:٧٠]، و: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [يونس: ١٣]، و: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ [يونس: ٧٤]، و: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [إبراهيم: ٩]، و: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الروم: ٩]، و: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الروم: ٤٧]، و﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥]، و﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢٢]، و: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [غافر: ٥٠]، و: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: ٨٣]، و: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، و: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللهُ وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]، و: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٧٤]، و: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ[٣١] اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص: ٣١-٣٢].

وأَهل السُّنّة والجماعة يؤمنون أنَّ الله تعالى أيد الأنبياء بالآيات الظاهرة، ومن بين هذه الآيات والبراهين ما اصطُلح على تسميته عند المتأخرين بالمعجزات أو خوارق العادات،

وهذا اللفظ استُحدث مؤخراً، فلم يرد في كتاب الله ولا سنة نبيه محمد ﷺ ولا في أقوال الصحابة، بل كانت تسمى بالآيات والبينات والبراهين، يقول ابن أبي العز: "المعجزة في اللغة تعم كل خارق للعادة، وفي عرف أئمة أهل العلم المتقدمين كالإمام أحمد بن حنبل وغيره ويسمونها الآيات. ولكنْ كثير من المتأخرين يفرقون في اللفظ بينهما، فيجعلون المعجزة للنبي، والكرامة للولي. وجماعهما: الأمر الخارق للعادة"(١). وليس ثمة إشكال في هذا اللفظ من حيثُ التسمية، ولكن التقيد بما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من الأسماء والمسميات أولى، وهو طريقة السلف؛ لما فيه من تمام الاعتصام بالوحي، ولأنه أدعى لارتفاع النزاع المذموم، ثم إنَّ حصرَ هذه الآيات في بعض أوصافها -وهو الإعجاز- إضعافٌ للدلالة كما هو متقرر عند المشتغلين بعلم الاعتقاد، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩]، و ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٦]، و ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]، وفي هذا يقول ابن تيمية: "والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد ﷺ كثيرة متنوعة، وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء، ويسميها من يسميها من النظار معجزات، وتسمى دلائل النبوة وأعلام النبوة، وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات، ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجوداً في الكتاب والسنة، وإنما فيه لفظ الآية والبينة والبرهان"(٢). وإثبات النبوة بالمعجزة وإن كانت "من أعظم الطرق عند أهل الكلام والنظر حيث يقررون نبوة الأنبياء بالمعجزات - ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح لتقرير نبوة الأنبياء - لكن كثيرا من هؤلاء

(١) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، ٢ / ٧٤٦.
(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، ٥/ ٤١٢.

كل من بنى إيمانه عليها يظن أن لا نعرف نبوة الأنبياء إلا بالمعجزات"[١]، فكثير "منهم لا يعرف نبوة الأنبياء إلا بالمعجزات"[٢]، والحق ما عليه أهل السنة والجماعة من أنَّ "الطرق الدالة على صدقه طرق متعددة غير طريق المعجزات"[٣]، وإذا تقرر هذا فإن السبب في اللغة : كل شيء يُتوصل به إلى غيره[٤]، وهو في الاصطلاح: ما كان مؤثرا في حدوث بوجه من الوجوه[٥]، أما الخارق: فهو لغة: مَزْقُ الشيء وجَوْبُه، وإلى ذلك ترجع فروعه[٦]، وهو في الاصطلاح: كل ما خالف العادة ، ولا يلزم منه كونه مقرونا بالتحدي[٧]، أما العادة لغة : فهي الدربة ، والتمادي في الشيء حتى يكون سجية[٨]، وفي الاصطلاح: لها معان عدة؛ إلا أنها تعود في مجملها إلى كونها اسما لكل صور الفعل التي تصبح بحكم تفردها واستقرارها ثابتة وراسخة[٩]. والحتمية واللاحتمية لغة: من حتم وهو إيجاب القضاء، وهو اللازم الذي لابد منه[١٠]، وفي الاصطلاح تعد الحتمية: وجهة النظر التي تقول بأن لكل حدث جملة شروط، فإذا توافرت فلا يمكن إلا أن يقع الحدث ولا شيء غيره[١١]، واللاحتمية في الاصطلاح: نقيض

(١) شرح العقيدة الأصفهانية، ابن تيمية، ص١٥٥.
(٢) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز، ص ١٤٩.
(٣) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية، ٣/ ٩٣.
(٤) انظر: لسان العرب، لابن منظور، ١/ ٤٥٨.
(٥) انظر: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، الحفني، ص ٤٠٥.
(٦) انظر: معجم مقاييس اللغة، بن فارس، ص ٣١٢.
(٧) انظر: المعجم الفلسفي، صليبا، ١/ ٥١٣، وانظر كلاماً جميلاً لابن تيمية حول الخارق في النبوات، ١/ ١٦٣ – ١٧٤.
(٨) انظر: معجم مقاييس اللغة، بن فارس، ص ٧١٨.
(٩) انظر: المعجم الفلسفي، لصليبا، ٢/ ٤٠.
(١٠) انظر: لسان العرب، ١٢/ ١١٣.
(١١) انظر: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، الحنفي، ص ٢٧٦.

الحتمية، وهي الاعتقاد بأن الظواهر الطبيعية والإنسانية لا تخضع لنظام[١].

وأما المعجزة في اللغة فهي: من الفعل عجز، وهي ترد بفتح الجيم وكسرها، والهاء فيها للمبالغة، وهي مأخوذة من العجز الذي هو ضد القدرة[٢]، وهي في الاصطلاح راجعة – عند أهل السنة والجماعة- إلى كونها أمراً خارجاً عن المألوف لغير الأنبياء، خارقةً لسنن الكون، دالةً على صدق دعواهم في النبوة، غير مقدورة للثقلين، فتُعرف بأنها: "أمر خارق للعادة، داع إلى الخير والسعادة، مقرون بدعوى النبوة، قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله سبحانه"[٣]. وهنا مسائل:

أولها: أنها -لدى أهل السنة والجماعة- آيات الأنبياء الدالة على صدق دعوى نبوتهم، وإنما عبرنا عن المعجزة بلفظ الآيات هنا: موافقةً لاستعمال الشارع في تسميتها بالآية والبرهان.

ثانيها: أنها -لدى أهل السنة والجماعة- مما لا يقدر عليها إلا الله سبحانه، وهذا لازم لثبوت صحة دعوى النبوة؛ فالله سبحانه وتعالى "جعل مع الرسل آيات هن علامات وبراهين، هي أفعال يفعلها مع الرسل يخصهم بها لا توجد لغيرهم، فيعلم العباد – لاختصاصهم بها- أن ذلك إعلام منه للعباد، وإخبار لهم أن هؤلاء رسلي"[٤].

ثالثها: أنها -لدى أهل السنة والجماعة- خارمةٌ للسنن الكونية خارقةٌ لعادة غير الأنبياء من الثقلين، وإنما قلنا ذلك لأن تعريف المعجزة بمطلق الخرق للعادة ليس كافياً "لوجهين: أحدهما: أنّ كون الشيء معتاداً وغير معتاد أمرٌ نسبيّ إضافيّ، ليس بوصف مضبوط

(١) انظر : المعجم الفلسفي، لصليبا، ص ٢٦٠.
(٢) انظر: لسان العرب، لابن منظور، ٢/ ٣٦٩، والقاموس المحيط، للفيروزبادي، ٢/ ٢٥٩.
(٣) قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر، أبو الطيب القنوجي، ص١٠٣.
(٤) النبوات، ابن تيمية، ٢ / ٧٧٨.

تتميّز به الآية، بل يعتاد هؤلاء ما لم يعتد هؤلاء؛ مثل كونه مألوفاً، ومجرّباً، ومعروفاً، ونحو ذلك من الصفات الإضافية. الثاني: أنّ مجرّد ذلك مشترك بين الأنبياء وغيرهم. وإذا خصّ ذلك بعدم المعارضة، فقد يأتي الرجل بما لا يقدر الحاضرون على معارضته، ويكون معتاداً لغيرهم كالكهانة والسحر. وقد يأتي بما لا يمكن معارضته، وليس بآية لشيء؛ لكونه لم يختص بالأنبياء ... وإذا خصّ الله طبيباً أو نحوياً أو فقيهاً بما ميّزه به على نظرائه، لم يكن ذلك دليلاً على نبوّته، وإن كان خارقاً للعادة؛ فإنّ ما يقوله الواحد من هؤلاء قد علمه بسماعٍ أو تجربةٍ أو قياسٍ ، وهي طرقٌ معروفة لغير الأنبياء" [١]، فكونها خارقةً للعادة لا يعد تعريفاً منضبطاً لها مميزاً لها عن غيرها، إذ من خوارق العادات ما قد تكون للكفار والفسّاق؛ ولذا "فما وُجد مع النبوّة تارةً، ومع عدم النبوّة تارةً، لم يكن دليلاً على النبوّة، بل دليلها ما يلزم من وجوده وجودها"[٢].

يبينه: رابعها: أن كونها خارقة لعادة غير الأنبياء: قيد يخرج به خوارق العادات التي هي من غير جنس آيات الأنبياء؛ فإن "الاعتبار أن تكون خارقة لعادة غير الأنبياء مطلقاً بحيث تختص بالأنبياء فلا توجد إلا مع الإخبار بنبوتهم"[٣]، وذلك لأنه متى عُلم بالضرورة أنه "لا يوجد خرق عادة لجميع الناس إلا وهو من آيات الأنبياء"[٤]؛ كانت متميزة في نفسها، مميزة للنبي من المتنبيء الكذاب، ومن لم يعط هذا المقام حقه فإنه لم يعرف خاصة آيات الأنبياء. وكونها خارقة لعادة جنس الحيوان قاطبة: تمييز لها، وتأكيد على إعجازها، وكونها مما لا يمكن أن يتحصله العبد باختياره، والعمل على اكتسابه

(١) النبوات، لابن تيمية، ١/ ١٧٣.
(٢) المرجع السابق، ١/ ٢١٣.
(٣) المرجع السابق، ٢/ ٨٢٦.
(٤) المرجع السابق، ٢/ ٨٥٥.

بالأسباب؛ فإنه "لابد في آيات الأنبياء من أن تكون مع كونها خارقة للعادة أمراً غير معتاد لغير الأنبياء بحيث لا يقدر عليه إلا الله الذي أرسل الأنبياء، ليس مما يقدر عليه غير الأنبياء، لا بحيلة ، ولا عزيمة، ولا استعانة بشياطين، ولا غير ذلك"(١)، فيظهر جلياً بهذا الفرق بين الحق والباطل.

وقد جعل ابن تيمية خوارق العادات على مراتب، وفصّل في كلٍ منها(٢)، فأعلاها آيات الأنبياء، ثمّ كرامات الصالحين، ثمّ خوارق الكفار والفجار؛ كالسحرة والكهان، وما يهمنا هنا هو المرتبة الأولى؛ آيات الأنبياء عليهم السلام؛ فآياتهم "وبراهينهم لا توجد إلاّ مع النبوّة، ولا توجد مع ما يناقض النبوة. ومدّعي النبوّة إمّا صادق، وإمّا كاذب. والكذب يُناقض النبوة، فلا يجوز أن يُوجد مع المناقض لها، مثل ما يوجد معها. وليس هنا شيءٌ مخالفٌ لها، لا موافقٌ، ولا مناقضٌ؛ فإنّ الكفر، والسحر، والكهانة، كلّ هذا يناقض النبوّة، لا يجتمع هو والنبوة"(٣)، فجنس الأنبياء متميزون عن غيرهم بالآيات والدلائل الدالة على صدقهم، "والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لا بد أن يتصف الرسول بها، وهي أشرف العلوم وأشرف الأعمال، فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب، ولا يتبين صدق الصادق وكذب الكاذب من وجوه كثيرة، لا سيما والعالم لا يخلو من آثار نبي من لدن آدم إلى زماننا، وقد علم جنس ما جاءت به الأنبياء والمرسلون وما كانوا يدعون إليه ويأمرون به، ولم تزل آثار المرسلين في الأرض ولم يزل عند الناس من آثار الرسل ما يعرفون به جنس ما جاءت به الرسل ، ويفرقون به بين الرسل وغير الرسل"(٤)، "وقد علم جنس ما يدعوا إليه الرسل وجنس

(١) المرجع السابق، ١/ ١٩٥.
(٢) انظر: المرجع السابق، ١/ ١٤١.
(٣) النبوات، لابن تيمية، ١/ ١٤٤.
(٤) شرح العقيدة الأصفهانية، لابن تيمية، ص١٥٩.

أحوالهم، فالمدعي للرسالة في زمن الإمكان إذا أتى بما ظهر به مخالفته للرسل علم أنه ليس منهم(١)، "فأصل هذا أن يعرف وجود الأنبياء في العالم، وخصائصهم، كما يعلم وجود السحرة، وخصائصهم(٢)، كما أن "جنس آيات الأنبياء خارجة عن مقدور البشر، بل وعن مقدور جنس الحيوان، وأمّا خوارق مخالفيهم؛ كالسحرة والكُهّان؛ فإنّها من جنس أفعال الحيوان؛ من الإنس، وغيره من الحيوان والجنّ؛ مثل قتل الساحر، وتمريضه لغيره؛ فهذا أمرٌ مقدورٌ، معروفٌ للنّاس بالسّحر، وغير السّحر"(٣).

خامسها: أن قولنا بأنها دالةٌ على صدق دعوى النبوة: قيد لبيانِ وتأكيد تمايز جنس آيات الأنبياء واختصاصها بهم، وكونها دالة على صدق دعواهم للنبوة؛ لأن "خاصة الدليل أنه يلزم من تحققه تحقق المدلول عليه فقط"(٤)، وهو هنا النبوة "فآية النبي هي دليل صدقه ، وعلامة صدقه ، وبرهان صدقه؛ فلا توجد قط إلا مستلزمة لصدقه"(٥)، ومن قال بخلاف ذلك فقد جوز وجود الدليل مع عدم مدلوله وهذا عين نقض الدليل، ويخرج أيضاً بهذا القيد جواز أن يجريها الله تعالى على أيدي غير الأنبياء ممن هم مناقضون للنبوة كالسحرة والكهان ومن عمل بأعمالهم، والذي أود التأكيد عليه هنا هو أن "جنس الأنبياء متميزون عن غيرهم بالآيات والدلائل الدالة على صدقهم، التي يعلم العقلاء أنها لم توجد لغيرهم، فيعلمون أنها ليست لغيرهم، لا عادة، ولا خرق عادة"(٦)، ومتى تبين هذا عُلم أنها لا يمكن معارضتها من غير الأنبياء، وبطل التباس

(١) المرجع السابق، ص ١٦٢.
(٢) النبوات، لابن تيمية، ١/ ١٩٥.
(٣) المرجع السابق، ١/ ١٤٤.
(٤) المرجع السابق، ٢/ ٩٨٦.
(٥) المرجع السابق، ١/ ٤٩١.
(٦) النبوات، ١/ ٥١٨.

آيات الأنبياء بخوارق غيرهم من السحرة والكهان، وذلك من وجوه:

- أن آيات الأنبياء لا تنال بالاكتساب بخلاف السحر والكهانة ونحوها، ولا تكون إلا مختصة بالأنبياء، ولا تحصل بغير وجود النبوة وكون هذه الدعوى صادقة من مدعيها. وهذه الآيات تحصل على وجه خارق خارج عن مقدور الإنس والجن من غير النبيين؛ فهي بخلاف خوارق السحرة والكهان فإنها لا تكون خارجة عن مقدور الحيوان، "فإن الساحر – مثلاً – قد يقدر على أن يقتل إنساناً بالسحر، أو يمرضه، أو يفسد عقله، أو حسه وحركته وكلامه...ونحو ذلك؛ وهذا كله مما يقدر الإنس على مثله لكن بطرق أخرى، والجن يطيرون في الهواء وعلى الماء، ويحملون الأجسام الثقيلة كما قال العفريت لسليمان ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩]، وهذا الجنس يكون لمن هو دون الإنس والجن من الحيوان كالطيور والحيتان ، والإنس يقدر على جنسه ، ولهذا لم يكن هذا الجنس آية لنبي لوجوده لغير الأنبياء"(١).
- كما تتمايز آيات الأنبياء عن غيرهم بالنظر إلى عين صفات الأنبياء، وما اشتملت عليه دعوتهم من الحق والخير والأمر بالتوحيد بخلاف صفات من هم دونهم ، وما اشتملت عليه أسحارهم من الاعتداء والظلم، والشرك المحرم؛ فالحاصل أنه "يعرف الفرق بين النبي وبين المتنبي، وبين ما يجيء به النبي وما يجيء به المتنبي، فالفرق حاصل في نفس صفات هذا وصفات هذا، وأفعال هذا وأفعال هذا، وأمر هذا وأمر هذا، وخبر هذا وخبر هذا، وآيات هذا وآيات هذا؛ إذ الناس محتاجون إلى هذا الفرقان أعظم من حاجتهم إلى غيره، والله تعالى يُبيِّنه ويُيسِّره"(٢).

(١) المرجع السابق، ١/ ٥٢٣.
(٢) المرجع السابق، ١/ ١٥٢.

سادسها: أن كونها – أي: المعجزة – خارقة للعادة ناقضة لعادات جميع الأنس والجن من غير الأنبياء؛ لا يلزم منه أن تكون مقرونةً بالتحدي ضرورة؛ فإن "آيات الأنبياء ليس من شرطها استدلال النبي بها، ولا تحديه بالإتيان بمثلها، بل هي دليل على نبوته وإن خلت عن هذين القيدين"(١). إلا أنها قد تقترن بالتحدي(٢) كما قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود:١١]، و﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

سابعها: أن وجه دلالة المعجزة على النبوة مختلف فيه بين المعتزلة والأشاعرة، فالمعتزلة قالوا بأن "إظهار المعجزة على يدي المتنبئ الكذاب قبيح والله سبحانه منزه عن فعل القبيح، وهذه الطرق سلكها المعتزلة وغيرهم ممن يقول بالتحسين والتقبيح، وطعن فيها من ينكر ذلك"(٣)، بينما سلك الأشاعرة خلاف ذلك المسلك - بناء على أصلهم في تجويز كل الأفعال من الله - "فسلكوا طريقين....أحدهما: وهو قول أكثر شيوخهم المتقدمين أن وجه دلالة المعجزة على صدق مدعي النبوة امتناع تعجيز الإله عن نصب الدلالة على صدق الرسل، فإن تصديقهم ممكن وذلك معلوم بالضرورة والاستدلال، ولا دليل إلى التصديق إلا خلق المعجزات، وبظهورها على يد الكذاب يبطل دليل صدقهم، فلا يبقى في المقدور طريق يصدقون به، فيلزم عجز الإله عن الممكن وذلك ممتنع....الطريق الثاني: هي التي اختارها أبو المعالي وأتباعه...أن المعجزات تدل من

(١) النبوات، ١/ ٤٩٨.

(٢) أشار ابن تيمية إلى أنه لم ينقل التحدي عن رسول الله ﷺ"إلا في القرآن خاصّة، ولا نُقل التحدي عن غيره من الأنبياء؛ مثل موسى، والمسيح، وصالح. ولكنّ السحرة لمّا عارضوا موسى، أبطل معارضتهم"، النبوات، ١/ ٥٤١.

(٣) شرح العقيدة الأصفهانية، ص٢٥٣.

حيث نزلت منزلة التصديق بالقول، والعلم بذلك يقع ضروريّا بقرائن أحوال...ولا يتوقف العلم بها هذا سبيله على نظر واستدلال فيقبل عليه اعتراض...قالوا ليس يمكن أن تدل المعجزات على صدق الرسل إلا على هذه الطريقة فهي كذلك جارية مجرى أدلة الأقوال"(١)، والخطأ الذي وقع فيه الفريقان هو من جهة الأصل الذي بنوا عليه لوازم تأصيلهم؛ فالمعتزلة "جعلوا هذه أصل دينهم والتزموا بها لوازم خالفوا بها نصوص الكتاب والسنة بل وصريح العقل في مواضع كثيرة، وحقيقة أمرهم أنهم لم يصدقوا الرسول إلا بتكذيب بعض ما جاء به...بل تارة يطعنون في النقل وتارة يتأولون المنقول، ولكن يعلم بطلان ما ذكروه إما ضرورة وإما نظراً"(٢)، والأشاعرة "لا يرون تنزيه الرب سبحانه عن فعلٍ من الأفعال"(٣)، والمقام لا يتسع لبسط القول في نقض هذه الأصول الفاسدة(٤)، وإنما المقصود التنبيه على فساد طريقتهم في إثبات المعجزة ودلالتها على صدق النبي. وهذا متعلق لدى أهل السنة بكون المعجزة ليست الدليل الوحيد على صدق دعوى النبوة؛ وذلك لأن من لم يجعل طريقها إلا المعجزة اضطر لأمور فيها "تكذيب لحق أو تصديق لباطل؛ ولهذا كان السلف والأئمة يذمون الكلام المبتدع؛ فإن أصحابه يخطئون إما في مسائلهم، وإما في دلائلهم، فكثيراً ما يثبتون دين المسلمين في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله على أصول ضعيفة بل فاسدة، يلتزمون لذلك لوازم يخالفون بها السمع الصحيح والعقل الصريح"(٥)، فالحق أن طرائق معرفة النبوة غير محصورة في حصول المعجزة، كما أن طرائق دلالة المعجزة على صدق النبي متعددة

(١) شرح العقيدة الأصفهانية، ص٢٦٤.
(٢) المرجع السابق، ص٢٥٣.
(٣) المرجع السابق، ص٢١٦.
(٤) انظر في نقض هذه المسالك: منهاج السنة لابن تيمية، ٣ / ٩٣ وما بعدها.
(٥) شرح العقيدة الأصفهانية، ص١٥٥.

أيضاً منها: "طريق الحكمة، وطريق القدرة، وطريق العلم والضرورة، وطريق سنته وعادته التي بها يعرف أيضاً ما يفعله وهو من جنس المواطأة، وطريق العدل، وطريق الرحمة، وكلّها طرق صحيحة"(١). ويجوز هنا أن تكون هذه الطرق عائدة بمجملها إلى طريقة واحدة وهي: العلم الضروري بصدق النبي الحاصل من اجتماع هذه الدلائل(٢)، فدلالة المعجزة عند أهل السنة "على الصدق دلالة ضرورية لا تحتاج إلى نظر"(٣)؛ فإن حاصل "اقتران المعجزة بدعوى النبوة يوجب علما ضروريا بأن الله أظهرها لصدقه"(٤) ، وعموم الآيات ربما حصل بها التصديق في العقل ضرورة دون استدلال ، وربما نتج عن النظر؛ "فآيات الأنبياء تدلّ على صدقهم دلالة معلومة بالضرورة تارةً، وبالنظر أخرى"(٥)، وربما استند النظر إلى علم سابق بأن هذا من خصائص الأنبياء، من خلال ما علم من أخبارهم، واستقراء أحولهم، فآيات الأنبياء هي أدلة صدقهم، وهذا "يُعلم بالضرورة، أو بما ينتهي إلى الضرورة"(٦)؛ ولهذا نجد بعض نصوص الوحي تقرر النبوات السابقة لإثبات نبوة محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ

(١) النبوات، لابن تيمية، ٢/ ٦٨٤.
(٢) انظر للاستزادة: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، ١/ ٨٩-٩٠، ٩/ ٤٠- ٥٣، والجواب الصحيح، ٥/ ١٩٦، ٦ / ٣٩٣-٤٠١، شرح الأصفهانية، (١٥٥ وما بعدها) ، والنبوات، ١/ ٢٣٥ ، ٤٦٦ – ٤٦٩، ٥٠٩، ٥٣١ – ٥٣٧.
(٣) منهاج السنة النبوية، ٣ / ٩٤.
(٤) المرجع السابق، ٣/ ٩٣.
(٥) النبوات، لابن تيمية، ٢/ ٨٠٦.
(٦) المرجع السابق، ٢/ ٧٧٣.

وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، فهو سبحانه يثبت وجود جنس الأنبياء ابتداءً كما في السور المكية؛ حتى يثبت وجود هذا الجنس وسعادة من اتبعه ، وشقاء من خالفه"[١]، وحينها يتعين الإقرار بنبوته ﷺ؛ "لأنّ الذي جاء به أكمل مما جاء به جميع الأنبياء. فمن أقرّ بجنس الأنبياء، كان إقراره بنبوة محمّد في غاية الظهور ... والعرب عرفوا ما جاء به محمد، فلمّا أقرّوا بجنس الأنبياء، لم يبق عندهم في محمّد شكّ"[٢]، فإن من أعمل عقله بالتأمل والنظر في ذلك الأمر، ثم في سنن المولى جل جلاله، ودلائل حكمته ليتأكد لديه أنَّ مقتضى عدله أن لا يؤيد بالمعجزات – التي هي من خصائص الأنبياء – إلا الأنبياء وحدهم، لا من هم مناقضون للنبوة أمثال السحرة والكهان. ومتى علموا خصائص النبي أيضاً من كونه صادقاً ولا يأمر إلا بالعدل والخير، وأن ما جاء به من الدلائل هي متضمنة في ذاتها هذا الأمر؛ لم يحكم عقله إلا بصدق دعوى هذا الرسول، وأن معجزاته وقرائن أحواله دليل على صدقه بلا ريب.

وإذا تبينت حقيقة المعجزة عند أهل السنة والجماعة فإن من المخالفين من اشترط اقترانها بدعوى النبوة، ومنهم من يشترط التحدي بها، وآخرون اشترطوا سلامتها عن المعارضة[٣]، إلا أن القدر المتفق عليه عند التحقيق هو كونها أمرا خارجا على الاطراد المعهود في سنن الكون، وآية يأتي بها الله تعالى تأييدا لأنبيائه[٤]، والذي نود التأكيد عليه هنا هو حقيقية

(١) النبوات، لابن تيميه، ١/ ٢٠٢.
(٢) النبوات، ١/ ٢٠٢.
(٣) انظر: البيان، للباقلاني، ص ٣٨-٤١، منهاج السنة النبوية، ٢/ ٤١٥، والفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم، ٥/ ٧، الجواب الصحيح، ٦/ ٤٠١، النبوات، ١/ ٤٩٨.
(٤) انظر: النبوات، ١/ ١٤٤، ١٦٤، ١٦٩، ١٧١، كبرى اليقينيات الكونية، البوطي، ص٢١٤، غاية المرام، للآمدي، ص٣٣٤، الجواهر الكلامية، الجزائري، ص٤٢، دائرة معارف القرن العشرين، وجدي، ٦/ ٢٠٠، خوارق العادات، الحميضي، ص٥.

المعجزة عند أهل السنة والجماعة، وأنها آية من جملة آيات الأنبياء خارقة للسنن الكونية، لها اختصاصها من ناحية جنس المعجزة، ومن ناحية جنس المصطفى للنبوة، خارجة عن مقدور الثقلين، دالة على صدق النبي فيما يدعيه. وإذا اتضح ذلك فإن التأكيد على أن المعجزات كطريق لإثبات صدق النبي قدر مشترك بين جميع المتكلمين(١)، وأعني بالقدر المشترك هنا لدى المتكلمين أن المعجزة إذا أجراها الله تعالى على يد النبي كانت دليلاً على صدق دعوى النبوة، فالكل متفق بحمد الله على أن المعجزة من حيث هي دالة على صدق النبي، وليس المقصود هنا أنهم اتفقوا على حد المعجزة أو اشتراطها كدليل على صدق النبي؛ فإن الكَرَّامية ترى عدم اشتراط المعجزة للنبي، ويقولون بأنه "ينبغي الإقرار بنبوة النبي ورسالة الرسول بمجرد أن يبلغ كل منهما رسالته...ولم تشترط الكرامية في هذا الصدد ضرورة أن يبرهن النبي أو الرسول على صدق دعواه"(٢)، وقد أشار بعض السابقين(٣)إلى أنهم أخذوا هذا عن الإباضية من الخوارج. والذي يعنينا هنا هو البحث في من تناول المعجزة، ومدى علاقة ذلك بالموقف من المبدأ السببي، إلا أن المعجزة -كما يقول ابن رشد- لم يتناولها الفلاسفة الذين عاشوا في المجتمع الإسلامي تناولاً مستقلاً بذاته، بل تناولوها من خلال بحثهم في النبوة وضرورة وجود نبي(٤)، وإذا اتضح ذلك، وتبين أن المعجزة عند أهل السنة والجماعة خارقة للسنن

(١) انظر: غاية المرام، ص٣٢٩، الفصل، لابن حزم، ١/ ٧٤، الاقتصاد، للغزالي، ص١١٥، المغني، للقاضي عبد الجبار، ١٥/ ٢٣٤، نهاية الإقدام، ص٣٤٣، الآمدي وآراؤه الكلامية، ص٤٨٤.

(٢) علم الكلام ومدارسه، عون، ص٢٢٩.

(٣) انظر قول عبد القاهر البغدادي: "وقد سرقت الكرامية هذه البدعة من الإباضية" في كتابه: أصول الدين، ص١٧٥.

(٤) مشكلة السببية وعلاقتها بوجود العالم عند فلاسفة الإسلام، ص١٦، وإن مما تجدر الإشارة إليه هنا ولا يتسع المقام لبسط القول فيه أن حقيقة النبوة لدى كثير من الفلاسفة مباينة لحقيقتها لدى أهل الأديان السماوية؛ فهي لديهم مكتسبة، والوحي لديهم فيض على قلب بشرٍ فاضَ من العقل الفعال =

الكونية، خارقة لعادة غير الأنبياء؛ فإنها لا تخرج عن السببية، بل هي محكومة بسنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير في جريان أفعاله تعالى على مقتضى الحكمة والعدل. والمتأمل في الفلسفة عموماً، ونتاج الفلاسفة الذين عاشوا في المجتمع الإسلامي على جهة الخصوص؛ يجد أن المبدأ السببي من أهم المسائل التي شغلت البحث الفلسفي قديماً وحديثاً، كما يجد المعجزة من أهم القضايا التي شُغل بها الفلاسفة المهتمون بالجانب الغيبي في القضايا الفلسفية، كما أن السببية والمعجزة من أهم القضايا التي اشتغل بها النتاج الكلامي لدى متكلمي الإسلام(١).

وعند التأمل تجد الصلة وثيقة بين هاتين المسألتين؛ فإن الإقرار بالمعجزة يستبطن ضرورةً الإقرارَ بالمبدأ السببي، وبالتالي فإن تناول المعجزة بالبحث يتطلب موقفاً واضحاً من المبدأ السببي، وطبيعة العلاقة بين الأسباب والمسببات، وهل هناك تلازم بين السبب والمسبب؟، وهل هذا التلازم ضروري أم هو مجرد تلازم ظاهري دون أن يكون هناك ارتباطٌ ضروري بينهما؟، والذي يعنينا في هذا البحث هو النتاج الإسلامي دون البحث في عموم النتاج الفلسفي. والناظر في التراث الكلامي؛ يجد الاتفاق قائما على أن الله تعالى هو مسبب الأسباب، وأنه تعالى إليه يرجع الأمر كله، وأنه الفعال لما يريد، لا نستثني من ذلك أحدا إلا ما ورد عن النَّظَّام، والجاحظ، وثُمامة بن أَشْرَس، ومن وافقهم(٢). أما عموم المدارس الإسلامية بما في ذلك المعتزلة والأشاعرة والمتصوفة فهم قائلون بنفاذ مشيئة الله تعالى في خلقه – كما سيتضح معنا – مما يجعل القول بأن الخلاف – من هذه الجهة – بين المدارس الإسلامية

=على جهة الضرورة، فهم لا يثبتون النبوة على التحقيق؛ انظر: درء تعارض العقل والنقل، ٣/ ٣٣٣، ومجموع الفتاوى، ١١/ ٦٠٦، والصفدية، ص٢٤٩، ٢٥٥، ٢٦٢.

(١) انظر على سبيل المثال: المغني، للقاضي عبد الجبار، ١٦ / ٤٠٧ وما بعدها، وأبكار الأفكار، للآمدي، ٤/ ١٥ – ١٤٢، والمسائل الرئيسة في الفلسفة، الفردجيلز، ص١٨٩.

(٢) وقد شرحت ذلك بتوسع في كتاب: أسس الاستقراء في الفكر الفلسفي دراسة تحليلية نقدية، في الباب الرابع "الاستقراء في الفكر الإسلامي"، ص٤٦٦ وما بعدها.

ينحل إلى أن يكون لفظياً قولاً له حظ من النظر؛ فمن قال بالتلازم الضروري بين السبب والمسبب – كجمهور المعتزلة – قال بأن ذلك محكوم بإرادة الله ومشيئته، ومن نفى الضرورة – كالأشاعرة – قال بأن لكل حادث محدث؛ إلا أنه أرجع ذلك كله إلى إرادة الله الغالبة وأمره النافذ، فهو الفاعل على الحقيقة. ولولم نخرج من هذه الدراسة بشيء سوى إيضاح الاتفاق بين المدارس الكلامية في الإسلام على المبدأ السببي – من حيث كونه مبدأ عقلياً–، وتقارب الموقف من حقيقة المعجزة لكان – من وجهة نظري – كافياً. إلا أن مما ينبغي التأكيد عليه هنا هو أن المقصود بهذا الاتفاق إنما هو من جهتين؛ الأولى: قدرة الله الغالبة وأن مقاليد الأمور بيده. وثانيهما: الضرورة المطلقة في المبدأ السببي من حيث كونه مبدأ عقلياً تحكمه الضرورة المطلقة، وليس المقصود التلازم المشاهد بين الأسباب والمسببات، أو أن هذا السبب المعين يقتضي مسببه المعين؛ فالمعتزلة قالت بهذا التلازم في الوقت الذي جعلته الأشاعرة مجرد اقتران لا ضرورة فيه ولا حكمة[1].

وأما أهل السنة والجماعة فمع إقرارهم بالمعجزة فهم يقررون ارتباطها بالسببية وعَودها إلى حكمة الله ومشيئته في خلقه وأمره، وقد أشرت سابقاً إلى أن إحدى خصائص المعجزة كونها خارقة لعادة غير الأنبياء، وأنها وثيقة الصلة بالمبدأ السببي. ومن المعلوم المستقر لدى أهل السنة والجماعة إثبات الأسباب وخواص الأشياء، موافقةً وانقياداً لدلالة الكتاب العزيز والسنة الصحيحة، وما أودعه الله في الفطر من دلالة الحس والعقل بالإقرار بالسببية؛ فالذي كان "عليه السلف والأئمة والفقهاء والجمهور وكثير من أهل الكلام؛ إثبات الأسباب كما دل على ذلك الكتاب والسنة مع دلالة الحس والعقل"[2]، لكن دونما اعتقاد باستقلال

(١) انظر في نقد موقفهم هذا: شرح الأصبهانية، لابن تيمية، ص١٧٥.
(٢) جامع الرسائل، لابن تيمية، ١/ ٨٨.

الأسباب عن المولى جل جلاله، مُسببها الأول، ومُوجِدها بهذه التراتبية المبهرة، والحكمة البالغة؛ فإن نفى الأسباب "أن تكون أسبابا في الأمور المخلوقة هو شبيه بنفي طوائف من المتصوفة ونحوهم لما يأمرون به من أعمال القلوب وغيرها من الأمور المشروعة...ولهذا قال من نظر إلى هذين الانحرافين كأبي حامد وأبي الفرج بن الجوزي وغيرهما في كتاب التوكل: اعلم أن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً تغيير في وجه العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع"(١)؛ إذ نصوص الوحي الشريف دالة على الإقرار بالمبدأ السببي كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾[البقرة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهَّ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقال سبحانه: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهَّ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقال سبحانه: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥]، وقال سبحانه: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهَّ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]، ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ

(١) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية، لابن تيمية، ص٢٦٢.

وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة:٥٢]، وقال سبحانه: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:١١]، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧]، وقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩]، وقال سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور:٣٥]، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا(٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا(٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، وقال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ(٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨- ٥٩]، وعند مسلم وغيره عن النبي ﷺ قوله: "إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإن الله عز وجل منورها لهم بصلاتي عليهم"(١)، ومثل هذا في القرآن والسنة كثير، و"جمهور المسلمين يقولون بالحق الذي دل عليه المنقول والمعقول...يثبتون ما لله في خلقه وأمره من الأسباب والحكم، وما جعله الله في الأجسام من القوى والطبائع في الحيوان وفي الجماد؛ لكنهم مع إثباتهم للأسباب والحكم لا يقولون بقول الطبائعية من الفلاسفة وغيرهم، بل يقولون إن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حول ولا قوة إلا به، ويعلمون أن الأسباب هي مخلوقة لله بمشيئته وقدرته، ولا تزال مفتقرة إلى الله، لا يقولون إنها معلولة له أو متولدة عنه كما يقوله الفلاسفة ،

(١) وأصل الحديث أخرجه البخاري، ١/ ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠ - ٣/ ١٥٩، ومسلم، ٣/ ٥٦، وأبو داود، ٢/ ٦٨، وابن ماجه، ١/ ٤٦٥، والبيهقي، ٤/ ٤٧، والطيالسي (٢٤٤٦)، وأحمد، ٢/ ٣٥٣، ٣٨٨/ ٤٠٦، من طريق ثابت البناني عن أبي رافع عن أبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين.

ولا أنها مستغنية عنه بعد الإحداث كما يقوله من يقوله من أهل الكلام؛ بل كل ما سوى الله تعالى دائم الفقر والاحتياج إليه ، لا يحدث ولا يبقى إلا بمشيئته القديمة، فما كان بالأسباب فالله خالقه وخالق سببه جميعاً. ويقولون مع هذا إن الأسباب التي خلقها ليس فيها ما يستقل بالتأثير في شيء من الأشياء، بل لا بد له من أسباب أخر تعاونه وتشاركه، وهو مع ذلك له معارضات وموانع تعارضه وتدافعه، كما في الشعاع الحادث عن الشمس، والاحتراق الحادث عن النار ونحو ذلك؛ فإنه لا بد مع الشمس من محل قابل لانعكاس الشعاع عليه، وهو مع ذلك يمتنع بحصول الحائل كالسحاب والسقف وغير ذلك من الموانع"[1]. ويأتي الإيمان بكون المعجزة لابد أن تكون خارقة للعادة في ظل هذا المنهج الذي اتخذه أهل السنة والجماعة في فهم السببية؛ ليكون حصولها على هذا الوجه الخارق خاضعا أيضاً بدوره للسببية، فكل "ما يظن أنه خرقه من العادات فله أسباب انخرقت فيها تلك العادة؛ فعاداته وسنته لا تتبدل؛ إذ أفعاله جارية على وجه الحكمة والعدل"[2]؛ فيظهر جلياً بهذا للمتأمل أن إيجاد المعجزة على الوجه الخارق للعادة إنما كان لحكمة وسبب، فهي خاضعةً بدورها إلى مبدأ السببية، عائدة إلى حكمة الله البالغة ومشيئته النافذة؛ "فإنه سبحانه قط لم يخرق عادة إلا لسبب يناسب ذلك؛ مثل فلق البحر لموسى، وغير ذلك من الآيات التي بعث بها؛ فإن ذلك خلقه ليكون آية وعلامة، وكان ذلك بسبب نبوة موسى وإنجائه قومه، وبسبب تكذيب فرعون، ومن جوز أن ذلك البحر أو غيره ينفلق لموسى من غير أن يكون هناك سبب إلهي يناسب ذلك فهو مصاب في عقله. ولهذا اضطرب أصحاب هذا القول، ولم يكن عندهم ما يفرقون بين دلائل النبوة وغيرها، وكانت آيات الأنبياء والعلم بأنها آيات إن حققوها على

(١) الصفدية، لابن تيمية، ص١٧٥.
(٢) النبوات، لابن تيمية، ٢/ ٨٦٩.

وجهها فسدت أصولهم، وإن طردوا أصولهم كذبوا العقل والسمع، ولم يمكنهم لا تصديق الأنبياء، ولا العلم بغير ذلك من أفعال الله تعالى التي يفعلها بأسباب وحِكم"[1]، وذلك لأنه "ما من سبب من الأسباب إلا وهو مفتقر إلى سبب آخر في حصول مسببه، ولا بد من مانع يمنع مقتضاه إذا لم يدفعه الله عنه ، فليس في الوجود شيء واحد يستقل بفعل شيء إذا شاء إلا الله وحده"[2].

إذا تبينت حقيقة المعجزة لدى أهل السنة والجماعة، وحقيقة تعلقها بالمبدأ السببي؛ فما حقيقتها لدى الفلاسفة الذين عاشوا في المجتمع الإسلامي ، وما علاقتها بالمبدأ السببي لديهم...؟

هذا ما سيبينه المبحث الثاني إن شاء الله تعالى.

(١) المرجع السابق، ٢/ ٨٧٢.
(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ٣/ ١١٢.

المبحث الثاني

الموقف من المعجزة وعلاقتها بالمبدأ السببي لدى فلاسفة الإسلام

ذكر الرازي إطباق الفلاسفة على إنكار خوارق العادات[١] ، وأشار إلى أنه يلزمهم الإقرار بها في مسائل[٢] ، والناظر في نتاج الفلاسفة الذين عاشوا في المجتمع الإسلامي يرى إقرار بعضهم بالمعجزات؛ إلا أنها عندهم مجرد قوى نفسانية[٣] ، وهذا عند التحقيق لا علاقة له بما ورد للأنبياء عليهم السلام من معجزات[٤] ، يقول ابن سينا: "فواجب إذن أن يوجد نبي، وواجب أن يكون إنساناً، وواجب أن تكون له خصوصية ليست لسائر الناس...فتكون له المعجزات التي أخبرنا بها"[٥]. ومن الجدير بالذكر هنا أن ننبه إلى أن النبوة لدى الفارابي وابن سينا[٦] مخالفة لما دل عليه الكتاب والسنة؛ إذ هي عندهم عائدة إلى قوة في ذات النبي، تمكنه من الاتصال بالعالم الروحاني، وهذه القوة -كما يقول ابن سينا- ربما حصلت بحسب المزاج الأصلي، وربما حصلت بنوع من الكسب[٧] ، وقد حاول الفلاسفة فهم النبوة من خلال موقفهم من المبدأ السببي، والذي من خلاله يفسرون جميع الظواهر الكونية

(١) انظر: النبوات وما يتعلق بها، للرازي، ص١٠٦.
(٢) انظر: المطالب العالية من العلم الإلهي، للرازي، ٨/ ٢٢.
(٣) وستأتي مناقشة ذلك لاحقاً إن شاء الله تعالى.
(٤) وقد ناقش ابن تيمية ذلك ونقضه من عدة أوجه كما في، الصفدية، ص ١٩٦ وما بعدها.
(٥) الشفاء الإلهيات، لابن سينا، ص٤٤٢.
(٦) انظر مثلاً: التصوف والتفلسف الوسائل والغايات، ص٢٧٧، ٣٤٩ وما بعدها)، والفلسفة والعرفان والإشكالات الدينية، يحيى محمد، ص١٩٢.
(٧) انظر: الإشارات، لابن سينا، ص٢٢١، وهذا خلافاً لما يقرره د/ إبراهيم مدكور من أن الفلاسفة لم يصرحوا بدور للنبي في اكتساب النبوة، انظر له: الفلسفة الإسلامية، ص٩٩)، وفلسفة العرفان، لـشقير، ص١٦٢.

بنوع من التلازم الضروري بين الأسباب والمسببات، محاولين الابتعاد عن أي تفسير غيبي مفارق لقوانين المادة[١].

والذي يعنينا في هذا المبحث أن الفلاسفة حصروا المعجزات في قوى النفس؛ لأن النبوة عندهم أصلاً ما هي إلا مجرد ظاهرة طبيعية عائدة إلى ذات النبي، وبالتالي كانت المعجزات مردها إلى هذا الأصل، يقول الغزالي: "إن الفلاسفة لم تثبت المعجزات الخارقة للعادات إلا في ثلاثة أمور: أحدها في القوى المتخيلة...والثاني: خاصية في القوة العقلية النظرية...والثالث: القوة النفسية العملية"[٢]، ويقول ابن تيمية: "وهذا القدر فعله ابن سينا وأمثاله، ممن رام الجمع بين ما جاءت به الأنبياء وبين فلسفة المشائين، أرسطو وأمثاله، ولهذا تكلموا في الآيات وخوارق العادات، وجعلوا لها ثلاثة أسباب: القوى الفلكية، والقوى النفسانية، والطبيعية، إذ كانت هذه هي المؤثرات في هذا العالم عندهم، وجعلوا ما للأنبياء وغير الأنبياء من المعجزات والكرامات وما للسحرة من العجائب هو من قوى النفس، لكن الفرق بينهما أن ذلك قصده الخير وهذا قصده الشر، وهذا المذهب من أفسد مذاهب العقلاء...ثم إن هؤلاء لا يُقِرُّون من المعجزات إلا بما جرى على هذا الأصل، وأمكن أن يقال فيه هذا، مثل نزول المطر، وتسخير السِّباع، وإمراض الغير وقتله، ونحو ذلك، وأما قلب العصا حية وإحياء الموتى وإخراج الناقة من الهضبة وانشقاق القمر وأمثال ذلك فلا يقرون به"[٣]. والفلاسفة القائلون بالتلازم الضروري بين الأسباب والمسببات -عند التأمل- ينكرون خوارق

(١) وهذا خلافاً لما يقرره د.عاطف العراقي من أن موقف الفلاسفة من النبوة خروج عن منطق التلازم بين الأسباب والمسببات. انظر كتابه: ثورة العقل في الفلسفة الإسلامية العربية، ص٢٤٧.

(٢) تهافت الفلاسفة، ص٢٣٦، وانظر في موقف الغزالي من المعجزة: المنطق والمعرفة عند الغزالي، ديناني، ص٩١.

(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية، ٦/ ٢٤.

العادات، ويجعلون ما يُرى على أنه خارق للعادة هو في حقيقته خاضع لسنن أخرى لم تنكشف لنا، فهم يرون أن "كل ما يقع في الحياة مألوف وغير مألوف جار على طبيعتها، واقع على ما تقضي به سننها، وأن التلازم بين الأسباب والمسببات لا يمكن أن ينفك أبداً، وأن الأمور التي تقع من غير أن تنكشف لنا أسبابها هي في الواقع نتيجة لأسباب ملازمة إذا تحققت الأسباب تحققت هذه الأمور، وإن الأحداث التي تبدو غريبة أو خارقة لمألوف هذه الحياة هي في الواقع أحداث طبيعية لم نعرف أسبابها التي لابد أن تكون قائمة وراءها، وإنه متى عرفنا أسبابها أصبحت غير غريبة وزايلها العجب...ومعجزات الرسل على هذا كما يرى الفلاسفة ليست إلا أموراً طبيعية تجري مع ناموس الطبيعة، وترتبط بالأسباب كما يرتبط غيرها من الأمور -وإن دهش الناس منها- وتسليمهم بها لخفاء أسبابها عنهم، وظهورها بينهم منقطعة عن كل علة غير مسندة إلى سبب"(١)، وهذا المعنى أشار إليه الفارابي(٢) وابن سينا(٣). إذن فالفلاسفة -وانطلاقاً من موقفهم الحتمي من المبدأ السببي- يقررون أن ليس ثمة عند التحقيق خوارق للعادات، وإنما هذا المشاهد منفعل ضرورة لأسباب خفيت عنا لا غير.

ونحن لا ننكر أن للمعجزات أسباباً يعلمها الله تعالى، لكن الذي يشكل فارقاً بين في فهمنا للمعجزة وفهم الفلاسفة هو القول بأن هذه المعجزات عائدةً إلى قوة في الذات النبوية؛ تُمَكِّنُ النبيَّ من التصرف في الكون، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فنحن لا نوافق على أن المعجزات انفعال ضروري للتلازم بين الأسباب والمسببات، بل هي خرق للقوانين الكونية بقدرة الله تعالى ومشيئته، وليست صادرة عن جهة الوجوب؛ لا من الذات الإلهية ولا من

(١) النبي محمد إنسان الإنسانية ونبي الأنبياء، الخطيب، ص٥٨.
(٢) انظر: فصوص الحكم للفارابي، ضمن كتاب المجموع، ص٧٢، ٧٨، دلائل التوحيد، القاسمي، ص١٥٥.
(٣) الإشارات والتنبيهات، لابن سينا، بشرح نصير الدين الطوسي، ٤/ ٨٦١.

النفس النبوية، وعليه فإن الخلاف بيننا وبين الفلاسفة عائد إلى أصل المنهج وطبيعة التصورات؛ فأهل السنة يعود تأصيلهم إلى الاستدلال بصحيح الوحي وصريح العقل، وأما هؤلاء فيعود منهجهم عند التحقيق إلى التأمل الذاتي؛ بغية الجمع بين الشريعة المحمدية ومذهب اليونان من أتباع أرسطو. كما يكمن الفرق في حقيقة النظر إلى قدرة الله الشاملة ومشيئته النافذة وحكمته البالغة لدى أهل السنة، والقول بالإيجاب الذاتي والانفعال الضروري بين الخالق والمخلوق لدى الفلاسفة، أو بين ذات النبي والمعجزة عندهم.

المبحث الثالث

الموقف من المعجزة وعلاقتها بالمبدأ السببي لدى متكلمي الإسلام

تناول متكلمو الإسلام هذا الأمر بالبحث؛ لما له من أهمية في دلالته على إثبات النبوة[١]؛ فإذا أخذنا مذهب المعتزلة عند أحد أعلامها – القاضي عبد الجبار– وجدناه يقول بأن المُعجِز لابد "أن يكون ناقضا للعادة"[٢]، ويجب تعلُّقُه بدعوى النبوة[٣]، وأن يكون "خارجاً عن مقدور العباد في الجنس أو في الصفة"[٤]، ويقول: "أما الذي نعرف به كون هذا المعجز من جهة الله تعالى: فهو بأن يكون من غير أجناس مقدورات العباد، أو بأن يكون من جنسها ولكنه قد وقع على وجه لا يقدر العباد على إيقاعه على ذلك الحد"[٥]، ويقول: "وأما الذي به نعلم انتقاض العادة به فهو: أن يسبق لنا العلم بضرب من الاختبار إجراء الله تعالى العادة في بعض الأشياء على طريقة مخصوصة، فإذا وُجِدَ ما يخرج عن هذه الطريقة عرفنا أنه نقض للعادة...وليس الغرض بما نعده نقض عادة إلا أن ينتقض عادات من قد ظهر ذلك النبي بينهم، وإلا فقد يجوز أن يكون الشيء معتاداً عند قوم فلا يكون ظهوره معجزاً لهم، ولا يكون معتاداً عند آخرين فيكون معجزاً لهم"[٦]، ويؤكد ضرورة ارتباطه بدعوى الرسالة فيقول: "فأما طريق العلم إلى أنه متعلق بدعواه ومختص به: فهو لظهوره عند دعواه لا عند دعوى

(١) بينت في المبحث الأول وجه دلالة خرق العادة على صدق النبي لدى المعتزلة والأشاعرة والموقف من ذلك، انظر: ص ١٣وما بعدها.
(٢) المجموع في المحيط بالتكليف، للقاضي عبد الجبار، ٣/ ٤٥١، وص٤٥٧.
(٣) المرجع السابق، ٣/ ٤٥١، وانظر: المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار، ١٥/ ١٩٧ وما بعدها.
(٤) المجموع في المحيط بالتكليف، ٣/ ٤٥٢.
(٥) المرجع السابق، ٣/ ٤٥٣.
(٦) المرجع السابق، ٣/ ٤٥٤، وانظر: المغني له، ١٥/ ١٨٥.

غيره، ولا عند فقد الدعاوي جملة، والمقصود بذلك أن يكون الرسول مدعيا للرسالة مستصحبا لادعائها، وإن لم يكن مجدداً لها، فعند هذا نعلم أنه ما قصد القديم جل وعز إلا تصديقه، لأنه لو لم يكن قاصداً لتصديقه لما جاز أن يظهره عند ذلك؛ لإيهامه ضربا من التلبيس، ولهذا لا يجوز أن يصدقه بالقول إلا وهو صادق، فكذلك الحال في إظهار المعجز"(١). ويؤكد القاضي عبد الجبار على أن المعجزة لابد وأن يكون جنسها إما غير مقدور للبشر كإحياء الأموات، وانشقاق القمر والإخبار عن الغيوب(٢)، وإما أن يكون إيقاعه على تلك الصفة ليس في مقدورهم كقلب المدن وحمل الجبال وفلق البحر ونحو ذلك(٣)، ليكون هذا فارقاً بين معجزات الأنبياء وحيل أهل الشعوذة(٤)، فاشترط في المعجز أن يكون متعذراً "على الأمة الذين يبعث إليهم الرسول"(٥)، ثم عقد فصلاً في بيان الشروط الواجب توافرها في من تظهر على يديه المعجزة، وخلاصتها استقامة الحال في الظاهر والباطن، وصلاح خَلْقه وخُلُقه(٦).

وهنا نلاحظ أن القاضي عبد الجبار يقول بانخرام العادة معجزة للنبي، وهذا يؤكد على أن الاطراد الذي يشترطه في الأسباب ليس هو على جهة الوجوب واللزوم بالطبع - كما

(١) المجموع في المحيط بالتكليف، ٣/ ٤٥٤.
(٢) انظر: تثبيت دلائل النبوة، للقاضي عبد الجبار، ١/ ٨، ٤٤، ٥٢، ٥٥، ٨٥، ٩١، ٢/ ٣١٣، ٤٣٧، ٤٤٦.
(٣) وكتابه "تثبيت دلائل النبوة" خير مثال على حقيقة موقفه في إثبات النبوة من خلال تقرير دلالة المعجزات على صحة النبوات.
(٤) انظر: المجموع في المحيط بالتكليف، ٣/ ٤٦٠.
(٥) المجموع في المحيط بالتكليف، ٣/ ٤٦٢، وانظر: نظرية المعرفة عند المعتزلة، سلام محمد طه، رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة مخطوط، ص٢٥٨.
(٦) المجموع في المحيط بالتكليف، ٣/ ٤٦٤ – ٤٧٢، وانظر: المغني له، ١٥/ ١٧ وما بعدها.

يقول الفلاسفة الطبائعيون- بل هو محكوم بقدرة الله تعالى ومشيئته، وسنته التي لا تتخلف إلا عندما يشاء الله وهذا يجعلنا نفهم الموقف المعتزلي بوضوح أكبر فيما يتعلق بالضرورة بين العلل والمعلولات، وأنه تلازم مستمر لأن الله قضاه وقدره، إلا أنه ينخرم بقدرته عندما يجري المعجزة على يد النبي، وقد عرّف أبو هاشم المعجزة بأنها "الخارج عن العادة"(١)، في تأكيد واضح على هذا المعنى الذي نشير إليه. وإذا كان هذا القدر مما وافق فيه المعتزلة أهل السنة والجماعة فأصابوا من هذه الجهة؛ إلا أن الخلاف بين السلف وعموم المتكلمين من المعتزلة أبعد من هذا المقدار(٢)؛ فقد غلطوا من حيث جعلوا خوارق العادات مختصة بالأنبياء، فنفوا الكرامات والسحر؛ إذ "جعلوا مجرّد كونه خارقاً للعادة هو الوصف المعتبر. وفرقٌ بين أن يقال: لا بدّ أن يكون خارقاً للعادة، وبين أن يقال: كونه خارقاً للعادة هو المؤثّر؛ فإنّ الأول يجعله شرطاً لا موجباً، والثاني يجعله موجباً...ومن هنا دخل الغلط على هؤلاء"(٣)، فالغلط في التأصيل استتبع غلطهم في النتائج؛ إذ أنكروا كرامات الأولياء، وخوارق السحرة(٤).

فإذا انتقلنا للأشاعرة وجدنا الأكثر من محققي هذه المدرسة يجعل المعجزة هي المعتَمد في إثبات النبوة؛ إلا أن منهم من يحصر(٥) دلالة النبوة في المعجزة فقط(٦)، ومنهم من ذكر طرقاً

(١) المعتزلة فرسان علم الكلام، عصام الدين، ص٢٨٨.
(٢) انظر المبحث الأول فقد ذكرت العديد من الفوارق بين أهل السنة ومخالفيهم.
(٣) النبوات، ١ / ٢١٥.
(٤) انظر: النبوات، ١ / ١٣٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢٣٢، ٤٨٤ ، ٥٠١، ٢/ ١٠٣١، ١٠٣٦، ١٠٤٠، وانظر موافقة ابن حزم للمعتزلة في هذا الأمر في كتابه "الدرة فيما يجب اعتقاده"، ص ١٩٤.
(٥) لا شك في خطأ هذا الحصر كما سبق بيانه في المبحث السابق.
(٦) كالباقلاني والجويني والتفتازاني وغيرهم. انظر: الإنصاف فيما يجب اعتقاده، للباقلاني، ص ٥٤، والبيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات، للباقلاني، ص٣٨، ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، للرازي، ص ٣٠٨)، الإشارة في علم الكلام، للرازي، ص ٣٠٣ وما بعدها)، وشرح المقاصد، للتفتازاني، ٥/ ١٩.

أخرى غير المعجز لدلالة على النبوة؛ إلا أن هذه الطرق مكملة للمعجزة ومتممة لها[١]. وهذه المدرسة تُقِرُّ بالمعجزة وبالكرامة، لكننا نجد عندهم أن الفرق بينهما لا يكاد يتعدى مجرد اقتران المعجزة بدعوى النبوة، والتحدي بها، وإلا فكلاهما خارق للعادة[٢]، وهو الأمر الذي صرح به الجويني[٣]، ولا يخفى أن "تبرير الأشاعرة لموضوع المعجزة هو أن النظام الطبيعي غير ضروري، وإنما هو طبقاً لعادة الله، والمعجزة عبارة عن خرق العادة، فالله تعالى الذي يخلق الأشياء متقارنة بشكل مباشر؛ يستطيع أن لا يخلقها متقارنة"[٤]، بل إن بعضهم قلب القضية فقال بأن الذي حملهم على رفض القانونية في الطبيعة هو "تبريرهم موضوع المعجزة"[٥]. والذي أراه أن هذه المدرسة وإن كانت لا تُقِرُّ بالتلازم الضروري بين الأسباب والمسببات إلا أنها في خصوص المعجزة قالت بنوع من الحتمية في التلازم بين المعجزة كسبب، وحدوث العلم الضروري بصدق الرسول كنتيجة؛ يقول الآمدي: "إذ العقل الصريح يقضي بأن ظهور الخارق مقارناً لدعوته، وعجز الناس عن معارضته، مع توفر دواعيهم على مقابلته، وإفحامه في رسالته؛ ينهض دليلا قاطعا على صدق مقالته"[٦]، ويقول: "العلم بصدق المتحدي بالنبوة، عند اقتران المعجز الخارق للعادة بدعواه، واقع لكل عاقل بالضرورة"[٧]، ويقول الشهرستاني

(١) انظر: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، للرازي، ص ٣٠١، والمواقف في علم الكلام، للإيجي، ص٣٤٩-٣٥٧.
(٢) انظر: علم الكلام بين الدين والفلسفة، تركي، ص٢٤٤، أصول الدين، للبغدادي، ص١٧٥.
(٣) انظر: الإرشاد، للجويني، ص٢٢١، وانظر: كتاب الإيضاح في أصول الدين، لابن الزاغوني، ص٤٧٨، وانظر مثل هذا الرأي في أصول الدين، للبزدوي، ص٩٧.
(٤) الله ومسألة الأسباب بين الفكر الإسلامي وفلسفة مالبرانش، الكاكائي، ص٢٦٦.
(٥) انظر: المرجع السابق، ص٢٤٨.
(٦) غاية المرام في علم الكلام، للآمدي، ص٣٠٦.
(٧) المرجع السابق، ص٣٠٨.

بأن الخارق للعادة المقرون بدعوى النبوة ينتهض "قرينة قطعية دالة على صدق المدعي"[١]، ويقول: "فإن كل عاقل يعلم بالضرورة أن عظاماً رفاتاً رماماً تجتمع فتحيا شخصاً، وتتشخص حياً، من غير معالجة من جهة المتحدي، ولا مزاولة أمر منه؛ لا يكون ذلك إلا فعلاً وصنعاً من الله تعالى، يظهر منه قصده إلى تصديق رسوله"[٢]، ويقول بعد أن ذكر القرائن المحتفة بالمعجزة في دلالتها على صدق النبي: "اقتران هذه المعاني يستعقب علما ضروريا بصدقه"[٣]. وعلى هذا الأمر الإمام الجويني فحصول المعرفة "بصدق النبي بالمعجزة ضروري عند إمام الحرمين"[٤]، بل يرى أن نصب دليل على صدق النبي غير المعجزة محال[٥]، وهو الأمر الذي قال به من قبله الباقلاني[٦] . ويرى الرازي أن تواتر المعجزة "مفيد للعلم اليقيني"[٧]، وهذا إقرار بالتلازم بين السبب والمسبب، على جهة الضرورة، يؤكده قوله: "اعلم أن العلماء اختلفوا في أن العلم الحاصل عقيب خبر التواتر علم ضروري أم نظري، والاختيار: أنه ضروري"[٨]، ويقول: "إن دلالة المعجزة على أن خلق المعجز لصدق المدعي: معلوم بالضرورة"[٩]، ويقول: "إن دلالة المعجزة على التصديق أمر معلوم بالضرورة"[١٠].وهم

(١) نهاية الإقدام في علم الكلام، ص٤٢١.
(٢) المرجع السابق، ص٤٣٤.
(٣) المرجع السابق، ص٤٤٣، وانظر: الفكر النقدي عند الشهرستاني، أبو سعدة، ص٤٦٦ وما بعدها.
(٤) منهج إمام الحرمين في دراسة العقيدة، ص٤٧٣.
(٥) انظر: شرح المقاصد للتفتازاني، ٣/ ٢٨٠.
(٦) انظر: البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات، ص٣٨.
(٧) الأربعين في أصول الدين، للرازي، ٢/ ٨٠.
(٨) المرجع السابق، ٢/ ٨٦.
(٩) المرجع السابق، ٢/ ١٠٧.
(١٠) المرجع السابق، ٢/ ١٠٨.

يشترطون أن تكون المعجزة "خارقة للعادة، مقرونة بالتحدي"(١)، "وأن يتعذر على المبعوث إليه المعارضة، وأن تكون ظاهرة مع دعوى النبوة"(٢)، كما يفرقون بينها وبين السحر في الرتبة، من حيث إن السحر لا يمكن أن ينتهي إلى ما انتهت إليه المعجزة(٣). وإن انتهى إلى ما انتهت إليه أوجد الله من يعارضه بمثله؛ صيانة لدلالة المعجزة على صدق النبي، أو منعه من القدرة على ادعاء النبوة(٤).

وقريباً من هذا نجد المدرسة الماتريدية تشير إلى ضرورة أن يؤيد الله رسوله بالمعجزة(٥)، مؤكدين على أن "ظهور الناقض للعادة عقيب دعوى المدعي للرسالة يوجب العلم يقيناً أن الله تعالى هو الذي فعل ذلك"(٦)، ويرون أن "إثبات صدق الرسل والأنبياء يقوم على النظر في صفات الأنبياء الخَلْقية والخُلُقية، قبل الرسالة وبعدها، وعلى تأييد الله لهم بالمعجزات، والآيات الدالة على صدقهم"(٧)، يقول أبو منصور الماتريدي عن دلائل النبوة: "مجيء الآيات الخارجة عن طبائع أهل البصر، في ذلك النوع، الممتنعة في أن يطمع في مثلها أو يبلغ بكنهها التعلم"(٨)، ويقول البزدوي: "لا يتصور ثبوت الرسالة بلا دليل، وليست تلك الدلائل إلا المعجزات...فإن ما ظهر ليس في وسع البشر، فعلم أن الله تعالى هو المنشيء، وإنما ينشئها لتكون دليلاً على صدق دعواه... ولابد للناس من معرفة الرسل، ولا طريق للمعرفة سوى

(١) غاية المرام، ص٣١٢.
(٢) أبكار الأفكار، للآمدي، ٤/ ١٨، وانظر: أصول الدين، للبغدادي، ص١٧١.
(٣) غاية المرام، ص٣١١.
(٤) انظر: أبكار الأفكار، ٤/ ٥٦.
(٥) انظر: علم الكلام ومدارسه، ص٣٨٤.
(٦) تبصرة الأدلة في أصول الدين، لأبي المعين النسفي، ص٤٧١.
(٧) الماتريدية دراسة وتقويماً، ص٣٧٩.
(٨) التوحيد، للماتريدي، ص١٨٩.

المعجزات"[١]، وبمثل هذا قال النسفي وغيره[٢] ، فهم يثبتون المعجزة والكرامة، ويرون أنه لا فرق بينهما إلا اقتران المعجزة بالتحدي ودعوى الرسالة[٣]. والذي يعنينا هنا أن الماتريدية أقرت بأن المعجزة خرق للعادة، فدل على أنهم يقولون بنوع من الاطراد في الظواهر الكونية، وفي هذا إشارة إلى نوع من الانتظام في الكون، مما يلمح إلى أنهم يقولون بنوع من التعاقب بين الأسباب والمسببات تأتي المعجزة لتفض هذا التلازم. وفي هذا الموقف انطلاق من المبدأ السببي بوضوح، من جهة إعادة كل الظواهر الكونية سواء منها المألوف أو الخارج عن المعتاد إلى مسبب الأسباب وخالقها سبحانه. كما أن في موقف الماتريدية إقراراً بنوع من التلازم بين السبب والمسبب، وذلك من خلال قولهم بأن "ظهور الناقض للعادة عقيب دعوى المدعي للرسالة يوجب العلم يقينا أن الله تعالى هو الذي فعل ذلك"[٤]، فهذا القول بوجوب حدوث العلم عقيب المعجزة ضرب من الحتمية، وقول بنوع من التلازم بين السبب والمسبب، وهو الأمر الذي نجده – كما مر معنا– في المدرسة الأشعرية[٥].

ومن متكلمي الإسلام الذين تناولوا المعجزة نجد الفيلسوف الصوفي ابن عربي وهو يرى بداية بشمولية السببية للكون[٦] ؛ فهو يرى أن كل شيء محكوم بقدرة الله تعالى، وبالتالي

(١) أصول الدين، للبزدوي، ص٩٧.
(٢) انظر: التمهيد، للنسفي، ص٤٤ – ٤٦، وبحر الكلام، للنسفي، ص٦١.
(٣) الماتريدية دراسةً وتقويماً، الحربي، ص٣٨٨.
(٤) تبصرة الأدلة في أصول الدين، النسفي، ص٤٧١.
(٥) وهذا عند التحقيق خروج من الأشاعرة عن مذهبهم في القول برفض ترتب الأثر على السبب وأنه مجرد اقتران.
(٦) انظر: الفتوحات المكية، ٢/ ٤٦، ٣/ ١٣٤، ٢٢٩، ٣٠٣، ٤/ ١٧، ٤٠٨، ٥/ ٢٠٢، الأسباب والمسببات، للشرقاوي، ص٢٤٨ ،٢٥٦، ٣٢٩، ٣٣٠، ومشكلة الحرية عند الفلاسفة والصوفية في الإسلام، دسوقي، ص٣٥٤، ومحيي الدين ابن عربي وليبنتز، قاسم، ص١٥٣، ولهذا تباينت حول هذه المسألة آراء الباحثين، فـ د/ محمود قاسم في كتابه عن ابن عربي يؤكد على أنه يرى بحرية الإنسان، وينفي الجبرية عن مذهب ابن عربي، فيما يرى أبو العلا عفيفي في مذهب ابن عربي نموذجاً صارخاً=

فإن المعجزات -عنده- خرق للعوائد، كما أنها لا تتكرر، فإذا تكررت صارت معتادة ولم تعد معجزة. وهو في موقفه من المعجزة مُتَّسِقٌ مع مذهبه في أن "العلاقة بين الأسباب والمسببات لا تنقطع، فإنها الحافظة كون هذا سببا، وهذا مسببا عنه"(١)، وأن الطبيعة تسير وفق نظام ثابت "إن أبقى الله الترتيب على سيره في المنازل على قدره، ولم يخرق العادة به"(٢). إذن فالأسباب كلها عائدة إلى الله تعالى، فهو المتصرف فيها كيف يشاء، وبالتالي يخرمها على يد النبي وكذا الولي متى ما شاء؛ دليلاً على صدقه(٣)؛ لأن خرق العادة لا يكون إلا بقطع السبب، وهذا أمر لا يقدر عليه إلا الله تعالى (٤). إذاً فالمعجزة لدى ابن عربي نموذج للتأكيد على السببية من جهة دلالتها على صدق النبي، ومن جهة خرمها لقوانين الكون بقدرة الله تعالى الذي هو مسبب الأسباب.

ومن أهم فلاسفة الإسلام ومتكلميه الذين يحسن استجلاء موقفهم من المعجزة: الفيلسوف الأندلسي ابن رشد(٥)، وهو بداية لم يكن ينكر المعجزات(٦)، بل يقول: "إن المتكلم

=للجبرية الصارمة كما في تعليقه على الفصوص. انظر: فصوص الحكم لابن عربي والتعليقات عليه، ص٤٠)، وهو الأمر ذاته الذي يتبناه الشيخ مصطفى صبري في كتاب: موقف البشر تحت سلطان القدر، وانظر: التصوف والفلسفة، ستيس، ص٣٩١ وما بعدها، ومحيي الدين ابن عربي وليبنتز، قاسم، ص١٦٥، والكنه فيما لابد للمريد منه، لابن عربي، ص٨، والإنسان والحرية عند محيي الدين بن عربي، شلبي، ص٢٠٩، وانظر من نفس المرجع ص١٩٣ – ٣١٨، والأسباب والمسببات، ص٣٢٩، وانظر في الرمز عند ابن عربي: الفصل الثاني من: الكتاب التذكاري محيي الدين بن عربي، إشراف د/ إبراهيم مدكور.

(١) الفتوحات المكية، ٢/ ٤٢٩.

(٢) المرجع السابق، ٣/ ٤٩٨.

(٣) انظر: المرجع السابق، ٢/ ٣٤١.

(٤) انظر: المرجع السابق، ٢/ ٣٣٨.

(٥) انظر في فلسفة ابن رشد وأهميته الدراسات التي ضمها كتاب: الفيلسوف ابن رشد ومستقبل الثقافة العربية، العراقي، ص٣٣٣ – ٦١٧، وابن رشد وفلسفته، لأنطوان.

(٦) انظر: دراسات في علم لكلام والفلسفة الإسلامية، المرزوقي، ص١٧٨.

مضطر أن يعترف بمعجزات الأنبياء، كأسس ضرورية للاقتناع والاقتداء بها، فكون المعجزة خارقةً للعادة معناه أنها مخالفةً للسير الطبيعي المعروف في إيجاد الحوادث، ومما جرت عليه عادة الله تعالى بحسب ما يظهر لنا في إيجاد الكائنات وربط الأسباب والمسببات، ولا يضر ولا يخرجه عن كونه ممكنا؛ لأن الذي ربط الأسباب والمسببات هو موجد الكائنات وخالقها، فليس من الممتنع عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات وإن كنا لا نعرفها"[١]. غير أن ابن رشد يقسم المعجزات إلى "معجز براني ومعجز جواني، أو أهلي ومناسب على حد تعبيره"[٢]، ويجعل المعجز البراني غالب ما يتكلم عنه الناس من المعجزات كانشقاق القمر وانفلاق البحر، وانقلاب العصا حية، وإحياء الموتى ونحو ذلك، ويجعل المعجز الجواني ما كان متعلقا بالتشريع الذي جاء به الرسول، "فدلالة القرآن على صدق الرسالة دلالة برهانية، وغير ذلك دلالته إقناعية خطابية"[٣]؛ ولهذا فهو "يشك ويرتاب فيما إذا كانت تلك الأمور الخارجية أو البرانية معجزات للرسول والرسالة"[٤]. وهو في موقفه من المعجزة ينطلق من موقفه من المبدأ السببي، في تأكيد على الرابطة الضرورية بين المعجزة من جهة، وصدق الرسول من جهة أخرى، أي أن موقفه من المعجزات ليس إلا انعكاساً لموقفه من السببية، فهو يقرر أن المعجز لابد وأن يكون من مدعي النبوة، وأن يكون دالاً بالضرورة على ما سيق لأجله الإعجاز[٥]، وإلا فإنه عند انعدام الرابطة الضرورية بين الدليل والمدلول؛ تكون الدلالة مقنعة للجمهور فحسب، غير مقنعة لأهل البرهان. يقول ابن رشد مؤكداً على أنه ليس في

(١) مشكلة السببية وعلاقتها بوجود العالم عند فلاسفة الإسلام، ص٢٦.
(٢) الأسباب والمسببات، للشرقاوي، ص١٩٠.
(٣) الوجود بين السببية والنظام، بلكا، ص٧٤، وانظر: أعلام الفكر العربي ابن رشد فيلسوف قرطبة، عكاوي، ص٦٩.
(٤) الأسباب والمسببات، ص١٩١.
(٥) انظر: ابن رشد سيرة وفكر، الجابري، ص١٣٢.

قوة المعجز البراني أن يدل على صدق الرسالة: "ليس في قوة الفعل العجيب الخارق للعوائد، الذي يرى الجميع أنه إلهي، أن يدل على وجود الرسالة دلالة قاطعة، وإنما كان المعجز ليس يدل على الرسالة؛ لأنه ليس يدرك العقل ارتباطاً بينهما، إلا أن يعترف أن المعجز فعل من أفعال الرسالة، كالإبراء الذي هو من أفعال الطب، فإنه من ظهر منه فعل الإبراء دل على وجود الطب، وأن ذلك طبيب"(١)، ويقول: "وإذا كان هذا كله كما وصفنا فقد تبين لك أن دلالة القرآن على نبوته ﷺ، ليست هي مثل انقلاب العصا حية على نبوة موسى ﷺ، ولا إحياء الموتى على نبوة عيسى، وإبراء الأكمه والأبرص، فإن تلك وإن كانت أفعالاً لا تظهر إلا على أيدي الأنبياء، وهي مقنعة عند الجمهور؛ فليست تدل دلالة وضعية إذا انفردت، إذ كانت ليست فعلاً من أفعال الصفة التي بها سمي النبي نبياً، وأما القرآن فدلالته على هذه الصفة هي مثل دلالة الإبراء على الطب"(٢)، ثم يقول: "ويشبه أن يكون التصديق الواقع من قبل المعجز البراني هو طريق الجمهور فقط... والتصديق من قبل المعجز المناسب طريق مشترك للجمهور والعلماء، فإن تلك الشكوك والاعتراضات التي وجهناها على المعجز البراني ليس يشعر بها الجمهور، ولكن الشرع إذا تؤمل وجد أنه إنما اعتبر المعجز الأهلي المناسب"(٣). وإن المتأمل في موقف ابن رشد يرى أنه انعكاس واضح لموقفه من المبدأ السببي وعلاقة الأسباب بالمسببات، إذ إنه لما قال بضرورة أن يكون هناك تلازم بين السبب والمسبب وإلا لم يكن السبب سبباً ولا المعلول معلولاً؛ قال بضرورة أن تكون المعجزة دالة على صدق النبي، ولا يمكن أن تكون -عنده- دالةً على ذلك إلا إذا كانت مناسبة للرسالة، إذ الدليل إذا

(١) مناهج الأدلة، لابن رشد، ص٢١١.
(٢) المرجع السابق، ص٢٢٢.
(٣) نفسه، ص٢٢٣، وانظر ص٢١٧، ٢١٨.

كان غريباً عن المدلول لم يوصل إلى المقصود. وليس يعنينا هنا البحث في موقفه من المعجزة إلا بقدر تعلقها بالمبدأ السببي.

والحقيقة أنَّ ابن رشد -من وجهة نظري- جانب الصواب في التفريق بين المعجز الجواني والمعجز البراني، وجعله البراني لا يدل على الرسالة إلا عند الجمهور، وذلك أن الرسالة هي عند التحقيق ادعاء النبي بأن الله تعالى المتصرف في الكون أرسله للناس، فكل ما دل على هذه الدعوى فهو دليل صحيح على صدقها، وابن رشد -من حيث لا يعلم أو من حيث يعلم- حصر الرسالة في خصوص ادعاء النبي أنه جاء بتشريع سماوي، ثم جعل كل ما خرج عن مطلق التشريع خارجاً عن أن يكون دليلاً صحيحاً على النبوة، والحال ليس كذلك، فإن حقيقة الرسالة هي اصطفاء الله تعالى لأحد خلقه بالوحي والتبليغ، والتشريع مندرج تحت التبليغ، وعموم دعوى الرسالة تشمل الإيحاء من جهة، ومادة الوحي من جهة أخرى. ونحن لا ننكر أن التشريع دليل على صدق النبي، وأنه على الهيئة التي هو عليها معجز ولا شك، لكن حصر الدلالة في هذا دون سائر ما يدل على أن الله تعالى يخرق نواميس الكون تصديقاً لرسله؛ قصور في النظر، وأُس المسألة - كما أشرت سابقاً- يعود إلى: هل المعجز دليل على مطلق الرسالة أم خصوص التشريع؟؛ فابن رشد انحاز إلى هذا الأخير، والصواب أن المعجزة دليل على مطلق الرسالة ابتداءً؛ فالله تعالى بخرقه نواميس الكون يدلنا دلالة واضحة على أن هذا الرسول مرسل من عنده عز وجل، ثم يأتي التشريع فيدل بإعجازه دلالة إضافية على صدق النبي في اتساق أحكامه وعدم تناقضه وتعذر الطعن فيه[1].

(١) انظر في المبحث الأول: "وجه دلالة المعجزة على صدق النبي لدى أهل السنة والجماعة".

المبحث الرابع

الموقف من المعجزة وعلاقتها بالمبدأ السببي لدى المفكرين العرب في العصر الحديث

تلقى كثير من المفكرين المعاصرين النتاج السابق عموماً، ونتاج الفلاسفة على جهة الخصوص؛ ليكون المادة التي يعتمدون عليها في بحث النبوة عمومً والمعجزات بصورة خاصة، في نوع من المحاولة لفهم النبوة والخوارق من خلال الظواهر المشاهدة. يقول حامد نصر أبو زيد: "إن فهم ظاهرة الرؤيا على أساس أنها حالة اتصال بين النفس والعالم الروحاني؛ كان من شأنه أن يدعم الأساس النظري لظاهرة النبوة، بالاستناد إلى بعض الحقائق المشتركة بين البشر جميعاً، وفي ظل هذا التصور لا تكون النبوة ظاهرة فوقية مفارقة، بل تصبح ظاهرة قابلة للفهم والاستيعاب، ويمكن أن يفهم الانسلاخ والانخلاع في ظل هذا التصور على أساس أنه تجربة خاصة، أو حالة من حالات الفعالية الخلاقة"[١]، وهنا نجد هذا المفكر يريد تفسير النبوة انطلاقا من الواقع، دون القول بأن في النبوة نوع اختصاص آت من السماء، بقدر ما هي ظاهرة طبيعية يمكن فهمها من خلال الواقع. ولست هنا بصدد البحث في إنكار هذا المفكر للنبوة من عدمه، بقدر ما أريد التأكيد على أنه – تبعاً للفلاسفة السابقين – يحاول فهم النبوة فهما لا يتعارض مع ظواهر الكون، أو بتعبيره هو: لا تكون النبوة ظاهرة فوقية مفارقة، وبالتالي فالمعجزات كذلك ما هي إلا ضرب من ضروب الظواهر الطبيعية التي لم تنكشف لنا أسبابها بعد.

وعلى هذا المنوال، أعني محاولة تفسير النبوة تفسيراً ماديا[٢] سار كثير من مفكري العرب

(١) مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، أبو زيد، ص٥١.

(٢) انظر في ذلك: التفسير الماركسي للإسلام، محمد عمارة، دار الشروق، ١٩٩٦م.

اليوم، وقد وجدوا في آراء الفلاسفة السابقين "مادة خصبة بنوا عليها آراءهم في النبوة، فبدت ظاهرة طبيعية عائدة إلى ذات النبي، وهكذا فالنبوة عندهم ليست إعجازاً مفارقاً لقوانين المادة والطبيعة والواقع، وإنما هي مجرد درجة قوية من درجات الخيال الناشئ عن فاعلية المخيلة الإنسانية يتصل فيها النبي بالملك، كما يتصل بها الشاعر بشيطانه والكاهن بالجن، فهي حالة من الحالات التي توصف عند بعض القائلين بها بأنها الفعالية الخلاقة للمخيلة الإنسانية، وليست ظاهرة مفارقة للواقع وقوانين المادة، والفرق بين النبي وبين الشاعر والصوفي والكاهن هو فقط في درجة قوة المخيلة وليس في الكيف والنوع"[١].

ومن هنا كان لختم النبوة مفهومه الجديد لدى مفكري اليوم، فانطلاقاً من نظرية التطور التاريخي في الظواهر الاجتماعية[٢]والتي قال بها بعض مفكري الغرب؛ رأى بعض مفكري العرب المعاصرين اليوم أن ختم النبوة يعني انتهاء وصاية السماء على الأرض، وأن زمن الخوارق والمعجزات أصبح طوراً تاريخياً ينتمي إلى الماضي[٣]؛ لأن البشرية اليوم -على حد زعمهم- تجاوزت هذه المرحلة من التفكير. يقول محمد إقبال: "إن النبوة في الإسلام لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إلغاء النبوة نفسها، وهو أمر ينطوي على إدراك عميق لاستحالة بقاء الوجود معتمدا إلى الأبد على مقود يقاد منه، وإن الإنسان لكي يحصل كمال معرفته لنفسه ينبغي أن يترك في النهاية ليعتمد على وسائله هو"[٤]،ويقول آخر: إن "الأمم السابقة كانت تألف العجائب والغرائب، ولم يكن يؤم العقل ويعرف العلم إلا أكابر العلماء،

(١) مبدأ السببية في الفكر الإسلامي في العصر الحديث، نفيسة، ص٢٩٦.
(٢) نظرية تقوم على القول بالتطور الحتمي في كل الأجناس والظواهر الطبيعية. انظر: الموسوعة العربية الفلسفية، ١/ ٢٦٩-٢٧٤.
(٣) انظر: موقف العلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، صبري، ٤/ ٢٠ وما بعدها.
(٤) تجديد الفكر الديني، إقبال، ص١٤١.

لذلك أرسل الله لهم الأنبياء وأعطاهم العجائب، موافقة لحالهم وهم جاهلون"[١]، ويقول آخر: "كان من سنة الله أن يرسل رسله إلى الناس بالمعجزات، ليحملهم على الإذعان له...فلما كان العصر الذي أرسل الله فيه محمدا ﷺ كانت القلوب قد رَقَّتْ، فلم يرسل رسوله بالمعجزات الخارقة لنظام الطبيعة"[٢]، ويؤكد العقاد هذا المعنى فيقول: "إن قيام النبوة على إقناع العقل المسؤول بآيات الكون قد اختتم سلطان الأخبار والقادة، كما اختتم سلطان النبوات بالمعجزات والخوارق"[٣]، ويقول جودت سعيد[٤]: "لما جاء الإسلام بمبدأ الاهتمام بالوقائع والتفاهم مع الله تعالى بواسطة سننه؛ توقفت النبوة التي كانت مرحلة وانتهت، وأصبح الواقع مصدر الفهم"[٥]، ويقول حسن حنفي[٦]: "لا يعني اكتمال الوحي انتفاء النظر، بل يعني نهاية الوحي بعد تطور طويل ومراحل متعددة، حتى تحقق استقلال الإنسان عقلاً وإرادةً، وأصبح قادراً بعقله الوصول إلى الحقيقة، مستقلاً بإرادته على تحقيق فكره ومثله، ورفضه جميع الوصايا عليه من السلطتين الدينية والسياسية، باسم الإيمان مرة، وباسم الدين مرة أخرى"[٧]، ويؤكد محمد شحرور[١] أن البشرية في مسارها التاريخي كانت محتاجة

(١) الجواهر في تفسير القرآن الكريم، طنطاوي جوهري، ص٦١.
(٢) دائرة معارف القرن العشرين، وجدي، ٦/ ٢٠٠، وانظر: قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، ص١٨٠، القران والسنة في التربية الإسلامية له، ص٥٨.
(٣) الإنسان في القرآن، العقاد، ص٢١.
(٤) جودت سعيد (ولد ١٩٣١م) مفكر سوري، من مؤلفاته: مذهب ابن آدم الأول، حتى يغيروا ما بأنفسهم، فقدان التوازن الاجتماعي، العمل قدرة وإرادة. راجع: النزعات المادية، لعادل التل.
(٥) لا إكراه في الدين، سعيد، ص١٠٥.
(٦) حسن حنفي (٢٠٢١م) مفكر مصري، من مؤلفاته: التراث والتجديد، مقدمة في علم الاستغراب، من العقيدة إلى الثورة. انظر: الفكر العربي في القرن العشرين، ١/ ٥١١.
(٧) من العقيدة إلى الثورة، حنفي، ١/ ٤٠١، وانظر في دعوته إلى الاحتكام إلى العقل والتخلص من كل ما سواه بحثه: المصادر الفكرية للعقلانية في الفكر العربي المعاصر في: حصيلة العقلانية والتنوير في الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٥م.

للمعجزات والخوارق لأنها لم تبلغ مرحلة النضج، ولأنها كانت مشدودة إلى المحسوس أكثر من تأثرها بالمعقول، فلهذا كانت المعجزات السابقة، ولما بلغت الإنسانية مرحلة الاكتمال استغنت عن هذا النوع من الخوارق[٢].

ولسنا هنا بصدد مناقشة موقف هؤلاء المفكرين من النبوة، ومدى قولهم بإثباتها من عدمه، لكننا نشير إلى أن الفكر المادي تغلغل في بنية هذا التفكير[٣]، مما حمله على محاولة الابتعاد عن أي تحليل من شأنه أن يكون متأثراً بجوانب غيبية، فعمد إلى تفسير النبوة تفسيراً مادياً، كظاهرة من الظواهر المتأصلة داخل الواقع، وبالتالي رأى أن المعجزات في الماضي نوع من الإملاء الذي فرضته طبيعة تلك المرحلة، ولما نضجت البشرية استغنت عن مثل هذا، "وإذا تساءلنا: هل السبب في اختلاف أساليب الخطاب بين الرسالة الخاتمة وما سبقها من الرسالات مرتبط بطبيعة القوانين الطبيعية والإنسانية، أم بطبيعة المخاطب نفسه؟ نجد البعض ينص على أن التغير في القوانين ذاتها، فحجاب السببية كان أخرق في النبوات السابقة، حيث يمكن للمرء من خلاله رؤية فعل الله الخارق. أصبح في المرحلة اللاحقة قوياً، وأصبحت العلاقة مشدودة إلى الواقع، فحصرت النبوة، ثم تميزت، ثم ختمت نهائياً، وهكذا انتهت مرحلة كاملة في التاريخ، أغلقت فيها معارج السماء، وأصبح كل شيء يخلد للحركة المادية في واقعها الموضوعي"[٤].وقد ناقش المعاصرون موضوع المعجزة، فذهب الشيخ محمد

(١) محمد ديب شحرور (٢٠١٩م)، من كتبه: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، الدولة والمجتمع، الإسلام والإيمان. انظر: النزعة المادية في العالم الإسلامي، التل، ص٢٩٧، وموسوعة أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين، خليل، ١/ ٥٩٤.

(٢) انظر: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، شحرور، ص١٨٥.

(٣) انظر: مقال "مذهب القرآن في المتشابهات"، وجدي، جريدة الأهرام المصرية (١٩٣٣م)، ٨/٣٠، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، الرومي، ص ٥٤٥ وما بعدها.

(٤) مبدأ السببية في الفكر الإسلامي في العصر الحديث، نفيسة، ص٢٩٨، وبعض النصوص المتعلقة بموقف المعاصرين أرشدني إليها هذا المؤلف.

عبده إلى أنها ترجع إلى أسباب طبيعية، وأنها ليست خارقةً لقانون طبيعي، بقدر ما هي راجعة إلى قانون خفي علينا، فيقول: "إن واضع الناموس هو موجد الكائنات، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات، غاية ما في الأمر أننا لا نعرفها، ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده"(١)، وهذا الأمر لا نختلف فيه مع الشيخ؛ ولا أظن أحداً يخالف في أن للمعجزات قانونها الذي ترجع إليه، وناموسها الذي به كانت مخالفة للمألوف. لكن هناك من المعاصرين من صرح بأنها ليست أصلاً خارجة عن قوانين الطبيعة التي نعرفها، والتي تخضع للمعرفة والكشف، وفي هذا يقول شحرور عن المعجزة بأنها: "ليست بحال من الأحوال خروجا عن قوانين الطبيعة أو خرقا لها"(٢)، ويؤكد حنفي(٣) أن القول بالمعجزة هو "من قبيل الاستهانة بالعقل، فالمعجزة قدح في العقل وإنكار لبديهياته، ورجوع بالتطور البشري إلى الوراء قبل ختم النبوة، حيث كان العقل عاجزا عن فهم قوانين الطبيعة، وكان عندئذ يلجأ إلى السحر وإلى العبادة درءاً للخوف واتقاء للمخاطر، كما أنها إنكار لقوانين الطبيعة. أما ما يقال بأنه معجزات فهو من الأمور الطبيعية التي يتكرر حدوثها على مر العصور"(٤)، ووفقاً لهذا فسر انشقاق القمر بنوع من التخييل الذي أمكن ممارسته مع القبائل العربية التي لم تعرف العلم بعد، كما فسر إخبار النبي عن أن اليهود لا يتمنون الموت بأنه نوع من استقراء نفسياتهم خلال التاريخ، ثم المقايسة بين الحاضر والغائب، كما فسر الإخبار عن مصارع أهل بدر بأنه نتيجة للمعرفة بقوانين الحرب(٥)، وبالتالي فليس ثمة إعجاز،

(١) رسالة التوحيد، عبده، ص٧٧.
(٢) الكتاب والقرآن، ص١٨٥.
(٣) انظر: من العقيدة إلى الثورة، ٤/ ٧٧.
(٤) مبدأ السببية في الفكر الإسلامي في العصر الحديث، ص٣٣٦.
(٥) انظر: من العقيدة إلى الثورة، ٤/ ١٧٩- ١٨١.

ولا خرق للقوانين المعروفة. يقول محمد فريد وجدي[١]: "أصبحت المعجزات بنظر العالم من الممكنات، وعلم أنها تابعة لنواميس خاصة بها"[٢]، لكنه صار خطوة أخرى عندما حدد هذا الناموس، وقال بأنه ليس شيئاً سوى قوة خاصة في نفس النبي يستطيع بها التأثير في الأشياء من حوله -وهذا كله يتضح فيه الأثر البالغ لفلسفة الفارابي وابن سينا كما مر معنا-، ويقول أيضاً: "القول الفصل في هذا كله: أن الإنسان كما يتسلط بارتقاء قوته العقلية على قوى الكون المادية، فيحدث من الاختراعات مالا يخطر بالبال؛ فكذلك إذا ارتقت نفسه عن السفاسف، وصفا قلبه عن غير الله، وكان في درجة النبوة أو الولاية؛ حصلت على يديه مدهشات خارقة للعادة، يكاد لا يصدقها رائيها فضلاً عن سامعها"[٣]، ويقول: "إذا انتهى الإنسان من الكمال الروحاني إلى حد أهل القرب والمعرفة، وخلصت قواه الروحية من علائق هذا الجسد الكثيف؛ انكشف له الكون بقواه وعوالمه، ورأى أن روحه في التأثير على مادته أقوى من يده عليها، ورأى أن حواسه الخمس، وحوله الذي كان يفتخر به قبل بلوغ هذه الدرجة؛ لا يساوي شيئا بجانب ما له من سلطان بعد خلوص روحه من أسر المادة"[٤].

والناظر في هذا النتاج يعلم أن هذا الخلل في التصورات إنما جاء من جهة اطراح الوحي، والاعتماد على أقوال الفلاسفة السابقين، سواء في فهم النبوة أو فهم المعجزة؛ فالنبوة اصطفاء من الله، والمعجزة ليست خرما للسببية، بل هي مؤيدة لها، من جهة أن الكون راجع في تدبيره إلى مسبب أول، هو الذي خلق الأسباب والمسببات، وفي قدرته تعالى أن

(١) محمد فريد وجدي (١٨٧٨ - ١٩٥٤م)، كاتب مصري، من مؤلفاته: دائرة معارف القرن العشرين، وصفوة العرفان في تفسير القرآن، والسيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة. انظر حديث العقاد عنه في كتابه: رجال عرفتهم.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين، ٦/ ٢٠٢.

(٣) المصحف المفسر، وجدي، ص١٣٢.

(٤) المرجع السابق، ص١٣٢.

يوجد السبب ولا يرتب عليه أثره، كما أن في قدرته تعالى أن يخلق الأثر مباشرة دون توسط السبب، وفي المعجزة إبطال للقول بالتلازم الضروري بين الأسباب والمسببات، الذي يذهب إليه الفلاسفة الطبائعيون ومَنْ وافقهم من المعاصرين، ممن يقول بالفعل بالطبع ومن ثم نفى الاختيار(١).

(١) انظر: حوار بين الفلاسفة والمتكلمين، الألوسي، ص٩٠، وانظر: مبادئ الفلسفة الإسلامية، الرفاعي، ٢/ ١٠٢، حول: الفاعل بالطبع؛ ينفتح لك أفق في جمع الفلاسفة بين القول بالطبع ونفي علم الله بالجزئيات.

المبحث الخامس

الفرق بين المعجزة والسحر من جهة تعلقها بالمبدأ السببي

فيما يتعلق بالفرق بين المعجزة والسحر فمن المعلوم أن من الأشاعرة من يقول بأن الله قد يجري على يد غير النبي ما يجريه على يد النبي، إلا أنه حينها لا يمكنه من ادعاء النبوة، أو يوجد من يعارضه بمثل دعواه، وفي هذا يقول الباقلاني: "ما يظهر عند فعل الساحر من جنس بعض معجزات الرسل وما يفعله الله عند تحديهم به"(١)، وفي هذا يقول ابن تيمية رادّاً هذا التصور: "إن ما يدل على النبوة هو آية على النبوة وبرهان عليها، فلابد أن يكون مختصاً بها، لا يكون مشتركاً بين الأنبياء وغيرهم، فإن الدليل هو مستلزم لمدلوله، لا يجب أن يكون أعم وجوداً منه، بل إما أن يكون مساوياً له في العموم والخصوص، أو يكون أخص منه، وحينئذ فآية النبي لا تكون لغير الأنبياء"(٢)؛ والأشعري وإن قال بأن المعجزة -التي هي آية على صدق النبي- هي مجموع ادعاء النبوة مع الظاهرة التي قارنت هذه الدعوى؛ لا يسلم له المقصود، بل يبقى الاعتراض الذي أورده ابن تيمية وجيهاً؛ من جهة أن الدليل لا يكون مشتركاً، ومن جهة أن الدليل هنا لدى الأشاعرة مركب من دعوى النبوة وما قارنها من الإعجاز؛ والدعوى لا تكون دليلاً؛ فإقحامها في مقدمات الدليل باطل. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الأشاعرة يجوزون على أصولهم أن يفعل الله كل ممكن(٣) فلا تصبح المعجزة عندهم مختصة بالنبي دون سواه على التحقيق من مذهبهم؛ وهذا لا شك في بطلانه؛ للوجهين

(١) البيان، للباقلاني، ص٩٤.
(٢) النبوات، لابن تيمية، ١/ ١٦٣، وانظر في ثبوت النبوة عند ابن تيمية: واقعية ابن تيمية، الزعبي، ص٢٠٣ وما بعدها.
(٣) انظر: النبوات، ١/ ١٣٤، منهاج السنة، ٣/ ١٣، ١١٢، أصول الدين، للبغدادي، ص ١٣٨، ١٧٢، ١٧٦، الملل والنحل، للشهرستاني، ١/ ٩٧.

السابقين؛ إذ يمكن حينها أن يلتبس النبي بالساحر "فآيات الأنبياء وبراهينهم لا توجد إلا مع النبوة"(١) وجنس آياتهم من حيث القدرة لا مطلق خرق العادة "خارجة عن مقدور البشر، بل وعن مقدور جنس الحيوان"(٢). هذا من حيث النظر إلى أصول منهج أهل السنة والجماعة وأصول الأشاعرة، وقد وافق المعتزلة أهل السنة على ضرورة ألا تكون مما يقدر أحد على معارضتها، وعلى ضرورة اختصاصها بالنبي(٣).

وأما من حيث التفصيل: فالجميع مقر بأن المعجزة(٤) -بكل شروطها- لا يجريها الله إلا على يد النبي(٥)، وبالتالي يبقى الخلاف -من هذه الجهة - إلى كونه لفظياً أقرب، وقد أشار ابن تيمية إلى ما يمكن أن ينحل به الخلاف فقال: "وإذا فُسِّر خرق العادة: بأنها خرق لعادات غير الأنبياء؛ أي لا يكون لغير جنسهم، وجنس من صدَّقهم، وفسَّر عدم المعارضة: بأنّه لا يقدر أن يأتي بها من ليس بنبيّ، أو متبع لنبي، كان المعنى واحداً، واتَّحدت التفاسير الثلاثة"(٦)، لكن هذا لا يلغي كون الخلاف -من جهة أخرى- معنوياً، وذلك فيما يتعلق بطبيعة المعجزة، وهل هي مطلق خرق العادة، أم أنها نوع مخصوص، ليس في مقدور الخلق، ولا يمكن أن يصل إليه عموم الثقلين؟، وفي هذا يقول ابن تيمية: "فآية النبي لابد أن تكون خارقة للعادة؛ بمعنى أنها ليست معتادة للآدميين"(٧)، ويقول: "فلابد في آيات الأنبياء من أن تكون - مع كونها خارقة

(١) النبوات، ١/ ١٤٤.
(٢) النبوات، ١/ ١٤٤.
(٣) انظر: المغني، القاضي عبد الجبار، ١٥/ ١٨٢- ١٩٦، ٢٠٢- ٢١٢، ٢١٧ – ٢٧٩.
(٤) والاتفاق الذي أعنيه هنا بين السلف وعموم المعتزلة والأشاعرة هو في أن المعجزة بكامل شروطها لا يجريها الله إلا على يد النبي ، وليس المقصود اتفاقهم في حد المعجزة. انظر المبحث الأول.
(٥) وهذا – كما سبق معنا قريباً- تناقض عند الأشاعرة بين التأصيل والتطبيق؛ إذ خالفوا هنا عند التطبيق أصول مذهبهم، والله أعلم.
(٦) النبوات، ٢/ ٧٧٦.
(٧) المرجع السابق، ١/ ١٦٤.

للعادة – أمراً غير معتاد لغير الأنبياء، بحيث لا يقدر عليه إلا الله الذي أرسل الأنبياء، ليس مما يقدر عليه غير الأنبياء، لا بحيلة، ولا عزيمة، ولا استعانة بشياطين، ولا غير ذلك. ومن خصائص معجزات الأنبياء: أنه لا يمكن معارضتها، فإذا عجز النوع البشري غير الأنبياء عن معارضتها؛ كان ذلك أعظم دليل على اختصاصها بالأنبياء، بخلاف ما كان موجوداً لغيرها، فهذا لا يكون آية البتة"(١)، ويقول: "آيات الأنبياء لا تكون إلا خارقة للعادة، ولا تكون مما يقدر أحد على معارضتها. فاختصاصها بالنبي، وسلامتها عن المعارضة شرط فيها، بل وفي كل دليل؛ فإنه لا يكون دليلاً حتى يكون مختصا بالمدلول عليه، ولا يكون مختصاً إلا إذا سلم عن المعارضة"(٢)، وبمثل هذا القول قال القاضي عبد الجبار في المغني في عدة مواضع(٣).

والذي نريد التأكيد عليه هنا هو أن ابن تيمية ومن وافق الحق من متكلمي الإسلام يثبتون جريان السنة الإلهية على أن الله تعالى لا يُجري لأحد من غير الأنبياء ما يُجريه على أيدي الأنبياء(٤)، وإن كان مطلق الخرق للمعتاد يجريه تعالى على أيدي أوليائه كرامة لهم، كما يجريه على أيدي غيرهم من أهل السحر والشعوذة لحكمة يعلمها الله؛ فقد أشار ابن تيمية إلى أن خوارق العادات ثلاثة أنواع: تشمل معجزات الأنبياء، وكرامات الأولياء، وخوارق

(١) نفسه، ١/ ١٩٥.
(٢) نفسه، ١/ ٥٠٠.
(٣) انظر: المغني، ١٥/ ١٨٢- ١٩٦، ٢٠٢- ٢١٢، ٢١٧- ٢٧٩.
(٤) أنبه هنا إلى أن كل الذين أنكروا حكمة الله وجوزوا فعل الله لكل ممكن يلزمهم جواز أن يجري الله المعجزة على يد الكاذب في ادعاء النبوة؛ جرياً منهم مع هذا الأصل. انظر النبوات، لابن تيمية، ١/ ٢٣٨، ٢٣٩، ٤٧٠، ٥٥٠، ٢/ ٨٣٩، ٩٥٦، ١٠٦٥، منهاج السنة، ١/ ٤١٤ ، ٤١٩، الأصفهانية، ٢/ ٦١٢ – ٦٢٤، الدرء، ١/ ٨٩ -٩٠، الجواب الصحيح، ٦ / ٣٩٣ – ٤٠١، البيان، للباقلاني، ص ٤٥ – ٤٨، الإنصاف له، ص ٦٢ ، ٦٨، التمهيد له، ص ٣٨٥، المواقف، للإيجي، ص٣٢٣ – ٣٣٢، شرح الجوهرة، للبيجوري، ص ١٠٨.

السحرة[١]؛ إلا أن الفارق بين ما يجريه تعالى على أيدي الأنبياء وما يجريه لغيرهم هو: أن ما يجري على أيدي الأنبياء هو خارق للسنن المطردة، ولا يجري منه شيء على يد أحد سواهم، كانفلاق البحر، وانشقاق القمر، وإحياء الموتى، وقلب خصائص الأشياء، كنار إبراهيم، وعصا موسى، ونحو ذلك، مما هو مخالف للسنة المطردة، التي لا تتخلف إلا بقدرة الله تعالى ومشيئته. أما ما يجريه على أيدي السحرة وأمثالهم فهو معتاد للناس، ويمكن تعلمه والوصول إليه، بخلاف معجزات الأنبياء، فليست في مقدور البشر، ولهذا كانت دليلا على صدق دعواهم[٢] . وهنا يرد السؤال عما إذا كانت معجزات الأنبياء وخوارق السحرة من جنس واحد، وحينها يكون الاختلاف في الرتبة من جهة تعلق القدرة المخلوقة بنوع منها دون نوع، أم أنهما من جنسين مختلفين؟

والحق الذي عليه أهل السنة والجماعة وهو الذي قرره ابن تيمية في كتابه النبوات أحسن تقرير هو: أنّا إذ نظرنا إلى مطلق خرق العادة؛ فهما من جنس واحد، إذ في كلٍّ خرقٌ لما اعتاده الناس في غالب أوقاتهم، وهنا يكون الفرق بين آيات الأنبياء وخوارق غيرهم فرقاً في الرتبة من جهة؛ أي أن آيات الأنبياء أعلى رتبة -من حيث الاقتدار عليها- من خوارق السحرة؛ إذ آيات الأنبياء مختصة بهم لا يقدر عليها إلا الله، وما اختصهم الله به من الآيات "خارج عن قدرة الإنس والجن"[٣]، وفرقاً في ذات الخارق من جهة أخرى؛ "فالفرق حاصل في نفس صفات هذا وصفات هذا، وأفعال هذا وأفعال هذا، وأمر هذا وأمر هذا، وخبر هذا وخبر هذا، وآيات هذا وآيات هذا؛ إذ الناس محتاجون إلى هذا الفرقان أعظم من حاجتهم إلى

(١) انظر: النبوات، ١/ ١٦٠، ٢/ ٧٨٥.
(٢) انظر: المرجع السابق، ١/ ١٣٨ – ١٦٢.
(٣) النبوات، ١/ ١٥٠.

غيره... ولهذا أخبر أنه أرسل رسله بالآيات البينات"[١]؛ وعلى هذا فحتى إذا كانت آيات الأنبياء وخوارق السحرة من جنس واحد إلا أنها تختلف في النوع ولا يمكن أن يقع بينهما لبس[٢]،والمقصود أن آية النبي وبرهانه "لا بد أن يكون مختصا بهذا النوع لا يجب أن يختص بواحد من النوع، ولا يجوز أن يوجد لغير النوع"[٣].

وإذا نظرنا من جهة القدر المشترك بين معجزات الأنبياء من جهة، وخوارق غيرهم من جهة أخرى، فسنصل إلى أن معجزات الأنبياء تجتمع في قدر مشترك واحد وماهية واحدة لا يشركها فيها غيرها؛ وهو كونها فوق مقدور البشر[٤] ، بينما الماهية والقدر المشترك الذي يجمع خوارق غيرهم هي: كونها واقعة تحت قدرة المخلوق، ومن هذا الوجه يكون الاختلاف بين معجزات الأنبياء وغيرهم اختلافا في الجنس لا في الرتبة فقط. ويؤكد هذا الأمر أنَّا إذا تأملنا في بعض معجزات الأنبياء نصل ضرورة إلى أنها من جنسٍ لا يمكن للبشر الوصول إليه، مثل نار إبراهيم التي كانت عليه دون غيره بردا وسلاما مع بقاء ناريتها[٥]، ولم تذكر النصوص أن الله حال بين حرارتها وجسد إبراهيم إلا بمطلق أمره دون توسط سبب ما، وهذا في قمة الإعجاز، من جهة سلبه لأثر الخواص مع بقاء الطبيعة التي سميت بها النار ناراً، والتي بها استحقت أن يخاطبها الله بقوله: يا نار. وهو الحال ذاته في انفلاق البحر لموسى، فإن طبيعة الماء السيولة والانتشار على الأرض، إلا أن الله تعالى فلق البحر لموسى، وأوقف خاصية

(١) المرجع السابق، ١/ ١٥٢.
(٢) انظر تفصيلاً دقيقاً لابن تيمية في أمر الخوارق في كتابه: النبوات، ١/ ١٦٤-١٧٥.
(٣) النبوات، ١/ ١٨٧.
(٤) انظر: النبوات، ١/ ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٥، وانظر -للتفصيل- الفصل الذي عقده ابن تيمية في كتابه: النبوات تحت عنوان: القول الفصل بين المعجز والسحر، ص ٢٢٥ وما بعدها.
(٥) ولا يشكل على هذا ما وقع لبعض أتباع الأنبياء من الكرامات؛ إذ هي آيات على صدق الأنبياء كما أنها لا تبلغ إلى مثل معجزات المرسلين ولم تبلغه قط. انظر: النبوات، ١/ ١٤١-١٤٤.

السيولة في بعض أجزائه التي من بينها كان الطريق، دون أن يسلب عنه اسم الماء، وهذا ليس في مقدور أحد من البشر، وهو الحال عينه في قلب العصا حية، فإنها انقلبت لا على جهة التخييل، بل قلب حقيقتها من كونها عصا إلى كونها حية تسعى، وهذا الأمر ليس في مقدور البشر، وهو الأمر الذي أدركه السحرة فخروا ساجدين، قالوا آمنا برب هارون وموسى، ولو كان فعل موسى من جنس تخييلهم للناس في رؤية الحبال والعصي تسعى؛ لما أقروا بنبوته، ولقالوا هذا من جنس سحرنا، فلما لم يكن ذلك علم أنهما من جنسين مختلفين. **والله تعالى أعلم.**

الخاتمــة

في الختام أحمد الله تعالى الذي يسر الانتهاء من هذا البحث، وأسأله تعالى أن ينفع به الإسلام والمسلمين، وقد توصلت إلى عدد من النتائج أهمها:

١. بينت إقرار أهل السنة والجماعة بآيات الأنبياء، وأنها دليل على صدقهم، وأن لفظ المعجزة لفظ حادث بعد ظهور علم الكلام، وأن التقيد بألفاظ الوحي أولى؛ لما فيه من تمام الاعتصام بالوحي ولأنه أدعى لارتفاع النزاع المذموم.

٢. المعجزة عند أهل السنة والجماعة خارجة عن مقدور الثقلين فلا يقدر عليها إلا الله تعالى.

٣. خوارق العادات لدى أهل السنة والجماعة شاملة لآيات الأنبياء وكرامات الأولياء وما يأتي به السحرة، إلا أن آيات الأنبياء متميزة عن غيرها من الخوارق كما أن الأنبياء متميزون عن غيرهم بما اصطفاهم الله تعالى به مما لا يكون لغيرهم.

٤. بينت أن المعجزات ليست هي الطريق الوحيد الدال على صدق الأنبياء لدى أهل السنة والجماعة، وإنما هي أحد الطرق، كما أن طرائق دلالتها على صدق النبي متعددة خلافا للمعتزلة والأشاعرة.

٥. بينت حقيقة المعجزة لدى أهل السنة والجماعة، وأنها آية من جملة آيات الأنبياء، خارجة عن مقدور البشر، ولا يلزم اقترانها بالتحدي.

٦. بينت إقرار أهل السنة والجماعة بالمبدأ السببي، وأن الله تعالى يخلق ما يشاء ويختار، فهو خالق الأسباب ومرتب آثارها عليها، وإذا شاء سبحانه أجرى ما شاء من الأحداث على يد من شاء من أنبيائه كيفما شاء.

٧. أهل السنة والجماعة مع إقرارهم بالمعجزة فهم يقررون ارتباطها بالسببية وعودها إلى

حكمة الله ومشيئته في خلقه وأمره. فهم يثبتون الأسباب وخواص الأشياء، موافقةً وانقياداً لدلالة الكتاب العزيز والسنة الصحيحة، وما أودعه الله في الفطر من دلالة الحس والعقل على الإقرار بالسببية، وأن الذي كان عليه السلف والأئمة والفقهاء والجمهور وكثير من أهل الكلام؛ إثبات الأسباب كما دل على ذلك الكتاب والسنة مع دلالة الحس والعقل، لكن دونما اعتقاد باستقلال الأسباب عن المولى جل جلاله، مُسببها الأول، ومُوجِدها بهذه التراتبية المبهرة، والحكمة البالغة.

٨. يعد المبدأ السببي من أهم المسائل التي شغلت البحث الفلسفي قديماً وحديثاً.

٩. المعجزة من أهم القضايا التي شغل بها الفلاسفة المهتمون بالجانب المتعلق بالمسائل الغيبية في الفلسفة.

١٠. العلاقة بين السببية والمعجزة من أهم القضايا التي اشتغل بها النتاج الكلامي لدى متكلمي الإسلام.

١١. يجد المتأمل أن الصلة وثيقة بين السببية والمعجزة، وذلك أن الإقرار بالمعجزة يستبطن ضرورة الإقرار بالمبدأ السببي، وبالتالي فإن تناول المعجزة بالبحث يتطلب موقفاً واضحاً من المبدأ السببي، وطبيعة العلاقة بين الأسباب والمسببات، وهل هناك تلازم بين السبب والمسبب، وهل هذا التلازم ضروري أم هو مجرد تلازم ظاهري دون أن يكون هناك ارتباط ضروري بينهما.

١٢. وسطية أهل السنة والجماعة في باب خوارق العادات بين مختلف الفرق.

١٣. تبين لي أن عموم المدارس الإسلامية -بما في ذلك المعتزلة والأشاعرة والمتصوفة- قائلة بنفاذ مشيئة الله تعالى في خلقه، فمن قال منهم بالتلازم الضروري بين السبب والمسبب - كجمهور المعتزلة- قال بأن ذلك محكوم بإرادة الله ومشيئته، ومن نفى الضرورة -

كالأشاعرة – قال بأن لكل حادث محدث؛ إلا أنه أرجع ذلك كله إلى إرادة الله الغالبة وأمره النافذ، فهو الفاعل على الحقيقة.

١٤. بينت معنى المعجزة في اللغة والاصطلاح، وأوضحت بأن المعجزة كطريق لإثبات صدق النبي قدر مشترك بين جميع المتكلمين.

١٥. بينت بأن الكرامية ترى عدم اشتراط المعجزة للنبي، وأنهم لم يشترطوا في هذا الصدد ضرورة أن يبرهن النبي أو الرسول على صدق دعواه، وأنهم أخذوا هذا عن الإباضية من الخوارج.

١٦. بينت بأن الفلاسفة حصروا المعجزات في قوى النفس؛ لأن النبوة عندهم ما هي إلا مجرد ظاهرة طبيعية عائدة إلى ذات النبي، وبالتالي كانت المعجزات مردها عندهم إلى هذا الأصل.

١٧. اتضح لي أن الفلاسفة القائلين بالتلازم الضروري بين الأسباب والمسببات –عند التأمل– ينكرون خوارق العادات، ويجعلون ما يُرى على أنه خارق للعادة هو في حقيقته خاضع لسنن أخرى لم تنكشف لنا، فهم يرون أن كل ما يقع في الحياة – مألوف وغير مألوف– جارٍ على طبيعتها، واقع على ما تقضي به سننها، وأن التلازم بين الأسباب والمسببات لا يمكن أن ينفك أبداً، وأن الأمور التي تقع من غير أن تنكشف لنا أسبابها هي في الواقع نتيجة لأسباب ملازمة إذا تحققت الأسباب تحققت هذه الأمور، وأن الأحداث التي تبدو غريبة أو خارقة لمألوف هذه الحياة هي في الواقع أحداث طبيعية لم نعرف أسبابها التي لابد أن تكون قائمة وراءها، ومتى عرفنا أسبابها أصبحت غير غريبة وزايلها العجب.

١٨. يرى الفلاسفة أن معجزات الرسل ليست إلا أموراً طبيعية تجري مع ناموس الطبيعة،

وترتبط بالأسباب كما يرتبط غيرها من الأمور – وإن دهش الناس منها – وتسليمهم بها لخفاء أسبابها عنهم، وظهورها بينهم منقطعة عن كل علة غير مسندة إلى سبب، وهذا المعنى أشار إليه الفارابي وابن سينا.

١٩. مما يشَكِّل فارقاً بين فهم أهل السنة والجماعة للمعجزة، وفهم الفلاسفة هو قولهم بأن هذه المعجزات عائدةً إلى قوة في الذات النبوية تمكنه من التصرف في الكون، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن أهل السنة والجماعة لا ترى بأن المعجزات انفعال ضروري للتلازم بين الأسباب والمسببات، بل هي خرق للقوانين الكونية بقدرة الله تعالى ومشيئته، وليست صادرة عن جهة الوجوب لا من الذات الإلهية ولا من النفس النبوية.

٢٠. تبين لنا أن أبا هاشم الجبائي ثم القاضي عبد الجبار من بعده – كأحد الأعلام المنظرين في الفكر الاعتزالي – يقولان بانخرام العادة معجزة للنبي، وهذا يؤكد على أن الاطراد الذي يشترطوه في الأسباب ليس هو على جهة الوجوب واللزوم بالطبع – كما يقول الفلاسفة الطبائعيون – بل هو محكوم بقدرة الله تعالى ومشيئته، وسنته التي لا تتخلف إلا عندما يشاء الله. وهذا يجعلنا نفهم الموقف المعتزلي بوضوح أكبر فيما يتعلق بالضرورة بين العلل والمعلولات، وأنه تلازم مستمر لأن الله قضاه وقدره، إلا أنه ينخرم بقدرته عندما يجري المعجزة تصديقا للنبي.

٢١. تبين لنا أن الأشاعرة يقرون بالمعجزة وبالكرامة، ولا يكاد الفرق عندهم بينهما يتعدى مجرد اقتران المعجزة بدعوى النبوة، والتحدي بها، وإلا فكلاهما خارق للعادة، كما صرح بذلك الجويني.

٢٢. تبين لنا أن تبرير الأشاعرة لموضوع المعجزة عائد إلى موقفهم من الضرورة بين

الأسباب والمسببات، وأن النظام الطبيعي غير ضروري، وإنما هو طبقاً لعادة الله، والمعجزة عبارة عن خرق العادة، فالله تعالى الذي يخلق الأشياء متقارنة بشكل مباشر؛ يستطيع ألا يخلقها متقارنة.

٢٣. تبين لنا أن المدرسة الأشعرية وإن كانت لا تقر بالتلازم الضروري بين الأسباب والمسببات المشاهدة وإنما هو مجرد اقتران، إلا أنها في خصوص المعجزة قالت بنوع من الحتمية في التلازم بين المعجزة كسبب، وحدوث العلم الضروري بصدق الرسول كنتيجة، وقد وجدنا هذا الأمر بعينه لدى المدرسة الماتريدية.

٢٤. بيّنْتُ اشتراط المتكلمين شروطاً في المعجزة، ومدى تقاربها عند التأمل؛ للاتفاق على أن الله تعالى مسبب الأسباب، وأنه المالك المتصرف في هذا الكون.

٢٥. بينت بأن الفيلسوف الصوفي ابن عربي يرى المعجزة نموذجا للتأكيد على السببية من جهة دلالتها على صدق النبي، ومن جهة خرمها لقوانين الكون بقدرة الله تعالى الذي هو مسبب الأسباب.

٢٦. بينت موقف ابن رشد من المعجزة، وتقسيمه المعجز إلى جواني وبراني، وأنه في موقفه من المعجزة ينطلق من موقفه من المبدأ السببي، في تأكيد على الرابطة الضرورية بين المعجزة من جهة، وصدق الرسول من جهة أخرى. أي أن موقفه من المعجزات ليس إلا انعكاساً لموقفه من السببية، فهو يقرر أن المعجز لابد وأن يكون من مدعي النبوة، وأن يكون دالاً بالضرورة على ما سيق لأجله الإعجاز، وإلا فإنه عند انعدام الرابطة الضرورية بين الدليل والمدلول؛ تكون الدلالة مقنعة للجمهور فحسب، غير مقنعة لأهل البرهان.

٢٧. بينت خطأ ابن رشد في التفريق بين المعجز الجواني والمعجز البراني، وجعله البراني لا

يدل على الرسالة إلا عند الجمهور. وبينت بأن دعوى الرسالة حقيقتها ادعاء النبي بأن الله تعالى – المتصرف في الكون – قد أرسله للناس؛ فكل ما دل على هذه الدعوى فهو دليل صحيح على صدقها، بينما نجد ابن رشد حصر الرسالة في خصوص ادعاء النبي أنه جاء بتشريع سماوي، ثم جعل كل ما خرج عن مطلق التشريع خارجاً عن أن يكون دليلاً صحيحاً على النبوة. والحال ليس كذلك، فإن حقيقة الرسالة هي اصطفاء الله تعالى لأحد خلقه بالوحي والتبليغ، والتشريعُ مندرج تحت التبليغ، وعموم دعوى الرسالة تشمل الإيحاء من جهة، ومادة الوحي من جهة أخرى. ونحن لا ننكر أن التشريع دليل على صدق النبي، وأنه على الهيئة التي هو عليها معجز ولا شك، لكن حصر الدلالة في هذا دون سائر ما يدل على أن الله تعالى يخرق نواميس الكون تصديقا لرسله؛ قصور في النظر. وأُس المسألة يعود إلى: هل المعجز دليل على مطلق الرسالة أم خصوص التشريع، فابن رشد انحاز إلى هذا الأخير، بينما الصواب هو أن المعجزة دليل على مطلق الرسالة؛ فالله تعالى بخرقه نواميس الكون يدل دلالة واضحة على أن هذا الرسول مرسل من عنده تعالى.

٢٨. بينت موقف المفكرين المعاصرين من النبوة، من أمثال نصر أبو زيد وحسن حنفي ومحمد شحرور وجودت سعيد ومحمد إقبال وغيرهم، ومدى قولهم بإثباتها من عدمه، وأن الفكر المادي تغلغل في بنية هذا التفكير، مما حمله على محاولة الابتعاد عن أي تحليل من شأنه أن يكون متأثرا بجوانب غيبية، فعمد إلى تفسير النبوة تفسيراً مادياً، كظاهرة من الظواهر المتأصلة داخل الواقع، وبالتالي قرروا أن المعجزات في الماضي كانت نوعاً من الإملاء الذي فرضته طبيعة تلك المرحلة، ولما نضجت البشرية، استغنت عن ذلك.

٢٩. بينت خطأ القول الذي تبناه بعض الباحثين من أن المعجزة خرم للمبدأ السببي،

وشرحت اتساقها مع هذا المبدأ، وأن القول بأنها خرم للسببية قول مخالف لضرورة العقل، ولا يمكن أن يقول بهذا القول إلا من يطعن في ضرورات العقل، وحينها لا يمكنه الاستدلال لشيء؛ لأن الضرورة العقلية بها يبدأ كل استدلال.

٣٠. بينت اختلاف المتكلمين في التفريق بين المعجزة والسحر، وترجح لي أن الجميع – من حيث النظر إلى جريان السنة الإلهية– مقر بأن المعجزة – بكل شروطها – لا يجريها الله إلا على يد النبي، وبالتالي يبقى الخلاف – من هذه الجهة – إلى كونه لفظياً أقرب. وبينت أنه من جهة أخرى معنوي؛ وذلك فيما يتعلق بطبيعة المعجزة، وهل هي مطلق خرق العادة، أم أنها نوع مخصوص، ليس في مقدور الخلق، ولا يمكن أن يصل إليه عموم الثقلين.

٣١. أجبت على التساؤل فيما إذا كانت معجزات الأنبياء وخوارق السحرة من جنس واحد، أم أنها من جنسين مختلفين؟ وبينت بأننا إذ نظرنا إلى مطلق خرق العادة؛ فهما من جنس واحد، إذ في كلٍّ خرقٌ لما اعتاده الناس في غالب أوقاتهم، وهنا يكون الفرق بين آيات الأنبياء وخوارق غيرهم فرقا في الرتبة وفي ذات الأمر، أي أن آيات الأنبياء أعلى رتبة – من حيث الاقتدار عليها – من خوارق السحرة، كما لا يمكن أن تلتبس بغيرها عند النظر في حقيقتها. وإذا نظرنا من جهة القدر المشترك بين معجزات الأنبياء، من جهة، وخوارق غيرهم من جهة أخرى، فسنصل إلى أن معجزات الأنبياء تجتمع في قدر مشترك واحد هو كونها فوق مقدور البشر، بينما القدر المشترك الذي يجمع خوارق غيرهم هي كونها واقعة تحت القدرة المخلوقة، ومن هذا الوجه يكون الاختلاف بين معجزات الأنبياء وغيرهم اختلاف في الجنس لا في الرتبة فقط.

أهم التوصيات

- ضرورة الاعتناء بالمسائل البينية التي يشترك فيها عددٌ من الحقول المعرفية عند تناول مسائل علم الاعتقاد بالتحليل.
- أدعو أقسام العقيدة إلى استدعاء العلوم التجريبية عند مناقشة بعض مباحث علم الاعتقاد التي لها تعلق بالكون والإنسان.
- أهمية أن يدرس طلاب الدراسات العليا مداخل مركزة في العلوم التجريبية المعاصرة، كالفيزياء والكيمياء وعلم النفس وعلم الاجتماع.

وختاماً هذا ما انتهيت إليه، فإن أصبت فالحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله منه بريئان، وأسأل الله تعالى أن يجعله خالصاً صواباً، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين.

المراجع

القرآن الكريم.

أبكار الأفكار في أصول الدين، الآمدي، أبو الحسن علي بن أبي علي محمد، تحقيق: د/ أحمد محمد المهدي، ط٣، القاهرة، مطبعة دار الكتب الوثائقية القومية، ٢٠٠٩م.

ابن رشد سيرة وفكر، الجابري، محمد عابد، ط٣، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧م.

ابن رشد وفلسفته، أنطوان، فرح، ط٣، بيروت، دار الفارابي، ٢٠٠٧م.

الأربعين في أصول الدين، الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر، تحقيق: د/ أحمد حجازي السقا، ط١، القاهرة مكتبة الكليات الأزهرية، ١٤٠٦هـ.

الأسباب والمسببات، الشرقاوي، محمد عبد الله، ط١، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٧م.

الإشارات والتنبيهات، لابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله، بشرح نصير الدين الطوسي، تحقيق سليمان دنيا، د.ط، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٨م.

أصول الدين لأبي منصور البغدادي، مطبعة الدولة ـ استنبول، ط١، ١٩٢٨م.

أصول الدين، البزدوي، أبو اليسر محمد بن محمد، تحقيق هانز بيترلنس، ط١، القاهرة، الحلبي، ١٣٨٣هـ.

أعلام الفكر العربي: ابن رشد فيلسوف قرطبة، عكاوي، رحاب، ط١، د.م، دار الكر العربي، ١٩٩٩م.

الاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، تعليق: علي بوملحم، د.ط، د.م، دار ومكتبة الهلال.

الآمدي وآرآؤه الكلامية، الشافعي، حسن، ط١، دار السلام للطباعة والنشر، ١٩٩٨م.

الإنسان في القرآن، العقاد، عباس محمود، د.ط، مصر، دار النهضة، د.ت.

الإنسان والحرية عند محيي الدين بن عربي، شلبي، سعيد، ط٢، د.م، دار علاء الدين، ٢٠٠٨م.

الإيضاح في أصول الدين، ابن الزاغوني، لأبي الحسن علي بن عبيد الله، تحقيق أحمد السايح، وإحسان عبدالغفار مرزا، ط١، د.م، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٥م.

بحر الكلام، النسفي، لأبي المعين ميمون بن محمد، د.ط، القاهرة، مطبعة الكردي، ١٩١١م.

البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات، للباقلاني، تحقيق مكارثي، د.ط، بيروت، المكتبة الشرفية، ١٩٥٨م.

تبصرة الأدلة في أصول الدين، لأبي المعين النسفي، تحقيق: كلود سلامة، ط١، د.م، الجفان والجابي للطباعة، ١٩٩٠م.

تثبيت دلائل النبوة، للقاضي عبدالجبار، أبو الحسن، تحقيق عبدالكريم عثمان، د.ط، د.م، دار المصطفى، ٢٠٠٦م.

تجديد الفكر الديني، إقبال، محمد، ترجمة عباس محمود، ط٢، د.م، د.ن، ١٩٦٨م.

التصوف والتفلسف الوسائل والغايات، طعيمة، صابر، ط١، القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٥م.

التصوف والفلسفة، ستيس، ولتر، ترجمة عبدالفتاح إمام، د.ط، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٩م.

التفسير الماركسي للإسلام، عمارة، محمد، د.ط، د.م، دار الشروق، ١٩٩٦م.

التمهيد في أصول الدين، لأبي المعين النسفي، تحقيق عبد الحي قابيل، د.ط، د.م، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٤٠٧هـ.

تهافت الفلاسفة، للغزالي، أبو حامد، تحقيق سليمان دنيا، ط٨، مصر، دار المعارف، د.ت.

التوحيد، لأبي منصور الماتريدي، محمد بن محمد، تحقيق فتح الله خليف، د.ط، بيروت، دار المشرق، د.ت.

ثورة العقل في الفلسفة الإسلامية العربية، العراقي، محمد عاطف، ط٦، القاهرة، دار المعارف، د.ت.

الجواهر الكلامية، الجزائري، طاهر، ط٢، بيروت، دار ابن حزم، ١٩٨٨م.

الجواهر في تفسير القرآن الكريم، جوهري، طنطاوي، ط٢، د.م، البابي الحلبي وأولاده، ١٣٥٠هـ.

حصيلة العقلانية والتنوير في الفكر العربي المعاصر، العراقي، عاطف، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٥م.

حوار بين الفلاسفة والمتكلمين، الألوسي، حسام، ط٢، د.م، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦م.

دائرة معارف القرن العشرين، وجدي، محمد فريد، ط٣، بيروت، دار المعرفة، ١٩٧١م.

دراسات في علم لكلام والفلسفة الإسلامية، المرزوقي، جمال، ط١، د.م، دار الآفاق العربية، ٢٠٠١م.

دلائل التوحيد، القاسمي، لجمال الدين، مراجعة محمد حجازي، ط١، مصر، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٨٦م.

رسالة التوحيد، عبده، محمد، د.ط، د.م، مطابع دار الكتاب العربي، ١٩٦٦م.

شرح المقاصد، للتفتازاني، مسعود بن عمر، تقديم إبراهيم شمس الدين، ط١، د.م، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م.

الشفاء الإلهيات، ابن سينا، تحقيق: الأب قنواتي وسعيد زايد، مراجعة وتقديم إبراهيم مدكور، ط٢، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٤٣٣ه.

علم الكلام بين الدين والفلسفة، تركي، إبراهيم محمد، ط١، د.م، دار الوفاء، ٢٠٠٨م.

علم الكلام ومدارسه، عون، فيصل بدير، ط١، مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٨م.

غاية المرام في علم الكلام، لسيف الدين الآمدي، تحقيق: أحمد السايح، وتوفيق علي وهبة، ط١، د.م، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٩م.

الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، محمد بن علي، تحقيق: عثمان يحيى، د.ط، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.

الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، وضع حواشيه أحمد شمس الدين، ط١، د.م، دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م.

فصوص الحكم، الفارابي، إسماعيل الحسيني، ط١، د.م، د.ن، ١٣٢٥ه.

فصوص الحكم، لابن عربي والتعليقات عليه بقلم أبو العلا عفيفي، د.ط، د.م، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٤م.

الفكر العربي في القرن العشرين، النابلسي، شاكر، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١م.

الفكر النقدي عند الشهرستاني، أبو سعدة، محمد حسيني، ط١، د.م، دار الوفاء، ٢٠٠٣م.

فلسفة العرفان، شقير، الشيخ محمد، ط١، د.م، دار الهادي، ٢٠٠٤م.

الفلسفة والعرفان والإشكالات الدينية، محمد، يحي، ط١، د.م، مؤسسة الانتشار العربي، ٢٠٠٨م.

الفيلسوف ابن رشد ومستقبل الثقافة العربية، العراقي، عاطف، د.ط، د.م، هيئة الكتاب، ٢٠٠٤م.

القاموس المحيط، للفيروزبادي، أبو طاهر محمد بن يعقوب، ط١، د.م، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩١م.

القرآن والسنة في التربية الإسلامية، الجسر، نديم، د.ط، د.م، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٦٧م.

قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، نديم، ط٣، بيروت، دار الخلود، ١٩٦٩م.

كبرى اليقينيات الكونية، البوطي، محمد سعيد، ط٨، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٢هـ.

الكتاب التذكاري، محيي الدين بن عربي، إشراف: إبراهيم مدكور، د.ط، د.م، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكتاب العربي، ١٩٦٩م.

الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، شحرور، محمد، ط١، د.م، دار سينا والأهالي، ١٩٩٢م.

لسان العرب، لابن منظور، محمد بن مكرم، ط١، بيروت، دار صادر، ١٩٩٠م.

الله ومسألة الأسباب بين الفكر الإسلامي وفلسفة مالبرانش، الكاكائي، قاسم، ط١، د.م، دار الهادي، ٢٠٠٥م.

الماتريدية دراسة وتقويماً، الحربي، أحمد، ط٢، د.م، دار الصميعي، ٢٠٠٠م.

مبادئ الفلسفة الإسلامية، الرفاعي، عبدالجبار، ط٢، د.م، دار الهادي، ٢٠٠٥م.

مبدأ السببية في الفكر الإسلامي في العصر الحديث، نفيسة، محمود محمد عيد، ط١، د.م، دار النوادر، ٢٠١٠م.

المجموع في المحيط بالتكليف، للقاضي عبدالجبار، جمع الحسن بن أحمد بن متوية، تحقيق عمر السيد عزمي، د.ط، د.م، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ت.

محيي الدين ابن عربي وليبنتز، قاسم، محمود، د.ط، القاهرة، د.ن، ١٩٧٢م.

المصحف المفسر، وجدي، محمد فريد، تحقيق إبراهيم علي سالم، د.ط، د.م، مطابع دار الشعب، د.ت.

المطالب العالية من العلم الإلهي، فخر الدين الرازي، ط١، د.م، دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م.

المعتزلة فرسان علم الكلام، محمد، عصام الدين، د.ط، الاسكندرية، منشأة المعارف، د.ت.

المعجزات وخوارق العادات عند الغزالي وابن رشد، درويش، عبدالحميد، ط١، د.م، عالم الكتب، ٢٠٠٠م.

المغني في أبواب العدل والتوحيد، للقاضي عبدالجبار، تحقيق لجنة من العلماء والباحثين، د.ط، د.م، د.ن، د.ت.

مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، أبو زيد، حامد نصر، ط٦، المغرب، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥م.

من العقيدة إلى الثورة، حنفي، حسن، ط١، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، ١٩٨٨م.

مناهج الأدلة في قواعد الملة، لابن رشد، أبو الوليد، تحقيق محمود قاسم، ط٣، د.م، الأنجلو المصرية، د.ت.

المنطق والمعرفة عند الغزالي، دينانى، غلام إبراهيم حسين، ط١، د.م، دار الهادي، ٢٠٠٤م.

منهج إمام الحرمين في دراسة العقيدة، عبد اللطيف، أحمد، ط١، د.م، د.ن، ١٩٩٣م.

موسوعة الفلسفة والفلاسفة، للحفني، عبد المنعم، ط٢، د.م، مكتبة مدبولي، ١٩٩٩م.

الموسوعة الفلسفية العربية، زيادة، معن، ط١، بيروت، معهد الإنماء العربي، ١٩٨٨م.

موقف البشر تحت سلطان القدر، صبري، مصطفى، د.ط، مصر، المكتبة السلفية، ١٣٥٢هـ.

موقف العلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، صبري، مصطفى، ط١، د.م، دار الآفاق العربية، ٢٠٠٦م.

النبوات، لابن تيمية، تحقيق عبدالعزيز الطويان، ط١، د.م، أضواء السلف، ٢٠٠٠م.

نهاية الإقدام في علم الكلام، الشهرستاني، عبد الكريم، حرره وصححه الفرد جيوم، د.ط، د.م، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.

واقعية ابن تيمية، الزغبي، أنور خالد، ط١، د.م، دار الأعلام، ٢٠٠٣م.

الوجود بين السببية والنظام، بلكا إلياس، ط١، د.م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤٢٩هـ.

رسائل الدكتوراه

مشكلة الحرية عند الفلاسفة والصوفية في الإسلام، دسوقي، فاروق أحمد حسن، رسالة دكتوراه (مخطوط).

مشكلة السببية وعلاقتها بوجود العالم عند فلاسفة الإسلام، صقر، إبراهيم محمد إبراهيم، رسالة دكتوراه (مخطوط).

نظرية المعرفة عند المعتزلة، طه، سلام محمد، رسالة دكتوراه (مخطوط).